موت سريري

وائل رداد

موت سريري / رواية
وائل رداد
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة , اش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٥٢٢
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٥- ١

موت سريري

رواية

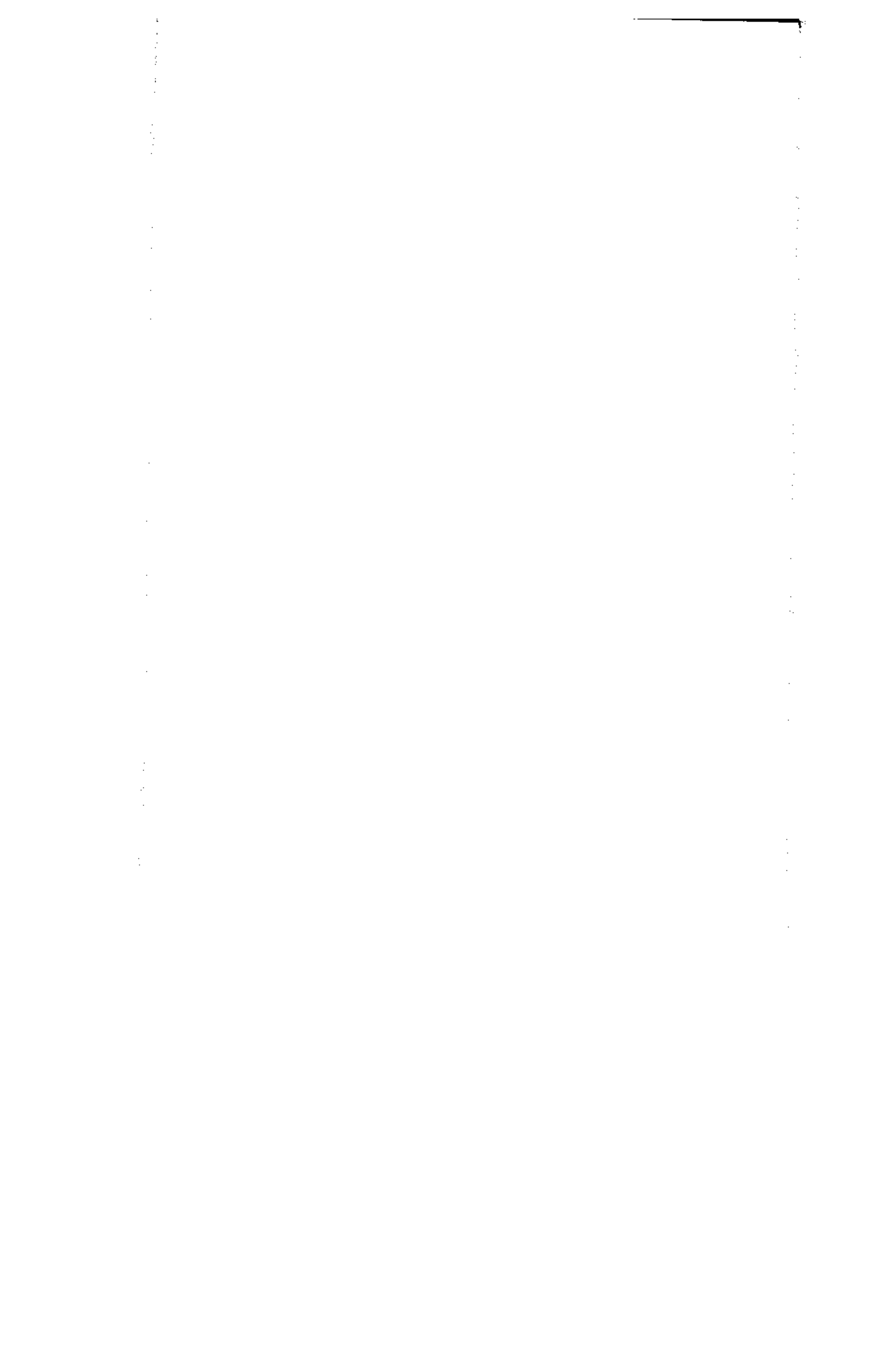
وائل رداد

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع



عقب عودته للسكن, هرع (شاهر) للثلاجة فالتقط منـــها شيئا مواربا بسرية وعناية, بعدها تمدد على فراشه دون طعـــام غداء أو تبديل ثيابه حتى..

كانت الحقنة في جيبه جاهزة ومعدة للاســـتخدام, مـــادة (R.D.٥) الملائكية! العذبة! صانعها قديس يستحق نوبل على هديته للبشرية جمعاء, يستحق الجنة! لقد منح البـــشرية أمـــل الاستمرار في الهراء الأزلي.. أزال الغطاء كاشفا عـــن الإبـــرة, طرقها بترفق بأنامله, قذف الرأس المنمنم بعض السائل, فبحث عن الأوردة في ذراعه بعد ربطها بحبل مطاطي, ضرب الموضع المنشود بضع مرات متفقدا الأوردة, ثم دسّ الإبرة في أحـــدها وهو يعض شفته السفلى, ومن ثم استرخى مباشرا التحليق..

كان ذلك عندما طرق أحدهم الباب مرتين بأدب جم قبل أن يدلف..

الشيخ (نزار) كما كان يحب أن يلقبه, طالـــب في كليـــة الشريعة والقانون, ناحل كأعواد قصب السكر, له نظرة طيبـــة متسمة بالهدوء والرزانة, وكعادة الأكثرية الساحقة من طلبـــة كليته كان يطلق لحيته, و لم يكن يمشطها مطلقا..

أحيانا يرحب بقدومه وأحيانا أخرى يتعمد مضايقته عـــن طريق تشغيل الأغاني الغربية الصاخبة بغية حمله على الرحيل!

اليوم – لحسن الحظ– كان يتوق لرؤيته والتسامر معه قليلا.. تبسم وهو يرد تحية الشيخ (نزار) بمثلها, ودعاه للجلوس على السرير الذي ظل متمددا عليه, فجلس قائلا وأصابعه تداعب لحيته:

- صباح الخير, مالك في الفراش كالمومياوات هكذا؟

- صدري كالجحيم, كلما سعلت شعرت بالقطران يكاد يخالط الدم..

- الله يشفيك ويعافيك.. كله من الدخان!

- الحق أنه قد خش حلقي خشا.. ابن الملعونة!

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

- كيف حالك أنت؟

- نحمد الله..

- وأيام الدراسة المضنية معك؟

- ردّ كمن يتنهد:

- الحمد لله على كل شيء..

- الحق بأني ضقت بكليتي والجامعة ذرعا..

- إن الله مع الصابرين..

- وصبر (أيوب) ما كان ليجاري صبري..

- أستغفر الله العظيم..

- والله حانق علي..

- نحمده في السراء والضراء..

- قد أصابني بالتهاب والله أعلم!

- وفي الصحة والمرض..

- نغضب ونحنق على كل شيء ونحن لا شيء إذن..

- هنالك أمور في الحياة تستحق أن نحيا لأجلها..

- معك حق, لذا قررت ولوج كلية أخرى..

- إذن فقد وجدت ضالتك!

- وهل وجدت أنت ضالتك أخيرا؟ إنك تبتسم رغم كل ما قلته لك!

بلغت بسمة (نزار) من السعة ما دفع (شاهر) للتخابث أثناء الحديث تدريجيا:

- أم تراه نصفك الآخر يا شيخ؟

تورد وجه الشاب قليلا, فأدرك (شاهر) إصابته منتصف الهدف بالضبط..

سأله بدهاء كي يزيد من ارتباكه:

- من هي سعيدة الحظ يا نمس؟

- بنت الجيران!

- وكيف أدركت أنها ضالتك المنشودة؟

- لمحتها وهي عائدة لمنزلها مع والدها..
- وأعجبتك؟
- كانت نظرة يتيمة وكافية..
- متحجبة أم متحررة؟
- أعوذ بالله منك! ما رأيك أنت؟
- صدقت.. الطيبون للطيبات..
- لكنني متردد وقلق..
- من الظروف.. أفهمك..
- من كل شيء..
- فوضها إلى الله وتوكل عليه..
- ذلك ما عقدت العزم عليه..
- والأهل؟
- ماذا بشأنهم؟
- هل هم موافقون؟
- مبدئيا أجل..
- ماذا تقصد بمبدئيا يا أخي؟
- الوالدة متحمسة وموافقة..
- كعادة الأمهات الحميمة..
- لكن الوالد متصلب الرأي متيبس الرأس..

- كديدن الآباء أصحاب المزاج الكدر الذين لا يشعرون بعذابات أبنائهم..

- والبنت..

وهنا صمت كأنما أصابته صاعقة من الخرس المباغت..

هبّ نصف (شاهر) العلوي, وبإشارة نصر من سبابته لوح بها في وجه (نزار) صاح:

- اصطدناك بالجرم المشهود.. حادثتها يا نمس إذن؟!

أجاب وحمرة الحياء تطغى على لون بشرته الطبيعي:

- كفّ عن ترديد ذلك كما لو كانت وصمة, أردت فقط معرفة رأيها لأني خشيت بأن ترفضني..

- معك كل الحق, هو شعور بغيض فيه طعن للرجولة ومذلة.. وبما ردّت عليك؟

أجاب منبسط الأسارير:

- ماذا تظن؟

(شاهر) لا زال على حاله.. على سريره متأملا السقف باستمتاع وتعبير الانتشاء باد على تقاسيمه الخاوية, عندما اندفع إلى داخل الحجرة بغتة.. الشيخ (نزار).. بدا واجم الوجه متجهم الملامح وهو يقول:

- السلام عليكم..

فردّ عليه باسما كالدائخ:

- وعليكم السلام! مالك؟

- الدنيا دار ابتلاء..

- ومن قال بأنها دار نعيم ورخاء؟

- ألا تبا للدنيا بأسرها!

- أوافقك الرأي, لكن ما بالك تنطقها بغيظ هكذا؟

تنهد كمن واتته مصيبة المصائب, وهمهم متضايقا:

- كيف حالك أنت؟

- لا تتهرب من السؤال.. لكن لحظة, الموضوع له علاقة بجولييت أليس كذلك؟

- أجل..

- ما الذي جرى بينكما؟

- وافقت على خطبة شاب آخر!

- انتكاسة أليمة, هوّن عليك يا شيخ..

- ناقصات عقل ودين!

تبسم مرغما وهو يتنهد, ثم تساءل:

- هل استطيع تدخين سيجارة؟

- افعل ما بدا لك..

- هل أضع بعض الموسيقى؟

- لا!

- إذن دعني أقص عليك ما دار بين ابن عمـــي وعطيتـــه البلهاء..

ظهر العبوس عليه وهو يسارع بالقول:

- حكيتها لي من قبل مرات عدة!

وظلّ يراقب مدة دون النطق بكلمة, كان يراقب منفـــضة السجائر المتخمة عن آخرها بالأعقاب حتى فاضت بحملها..

حياه وخرج عقب محادثتهما الشيقة, فرقد (شاهر) علـــى ظهره مطالعا سقف الحجرة حيث تدلت مروحة تدور بتهالك مصدرة صوت أزيز ضوضائي, كانت الرطوبة خانقـــة, وقـــد شعر برغبة في النوم للخلاص من الشعور المقض بالاختناق..

فجأة.. ارتعد بدنه رعدة هستيرية, وتمدد نصفه العلـــوي على الأرضية, في حين ارتجفت ساقه اليمنى بشدة وكأنه ينازع تحت الماء أملا في الوصول للسطح للتنفس, وانفجرت رغـــوة بيضاء شنيعة من بين شفتيه.. كان هذا قبل أن يتحول إلى جثة, أو أن هذا ما شعر به..

لابد وأن المادة اللعينة الرائعة السبب!

•••••

حفلة مقامة في الدار تتميز بتلقائية جميلة..

والدته أصرت على إقامتها, ووالده حضرها على مـــضض لأن لا وقت لديه لهراء أعياد الميلاد, فقد وعد ذلك المساء وفي هذا التوقيت تحديدا بموافاة أحدهم في مكان تم الاتفاق عليــه مسبقا, شقة مستأجرة لا يدر أحد عنها شيئا باســتثنائه هــو وشخص خاص يهمه أمره كثيرا!

ردد ثرثرة لم يجد أذنا صاغية لها عن تفاهة أعيـــاد المـــيلاد, أبدى تبرما وهو يشاهد الكعكة المغطاة بطبقة ثقيلة من الكريمة المخفوقة والشموع المغروسة بها, وينصت لأنشودة "سنة حلوة يا جميل" المضجرة.. وانتظر بنفاد صبر إطفاء ولـــده الوحيــد عشرة شموع بأنفاســـه الــضعيفة وســـط تهليـــل المـــدعوين وتشجيعهم..

طال انتظاره, فقرب فمه من الشموع قائلا لولده:

- دعني أساعدك وإلا بقينا هنا حتى منتصف الليل!

أطفأ الشموع بنفخة واحدة وزوجه تطيل النظر إليه بعتاب وملامة, لكنه تجاهلها مقبلا الصبي في جبهته قائلا بعجلة:

- عقبال مائة سنة يا (شاهر)..

قبّلت الأم وحيدها على خده, في حـــين أشـــار الأب إلى ساعته من وراء الابن وتحت أنظار الأم, التي اكتفـــت بنظـــرة

متجهمة وهي تشير له أن يرحل.. بإمكانك الرحيل مادامت رفقتنا لا تسرك إلى هذا الحد!

والصبي لم يكن سعيدا, لا هدايا من أي نوع باستثناء دفتر رسم وأقلام تلوين, حتى الكعكة التي قطعوها رمقها بنظرات القرف والازدراء, فهو لم يعد يطيق الحلوى..

جلست الأم مع بعض النسوة يثرثرن, وتنحى الأطفال للعب والعبث بأثاث المترل, في حين انتحى (شاهر) جانبا كي يخرج علبة السجائر التي سرقها من حجرة والده..

تناول سيجارة وهو يشاهد من خلال النافذة والده واقفا يشعل سيجارة هو الآخر باسما بخلاص لخروجه أخيرا من ذلك السجن, بدا سعيدا, لم يكن كذلك قبل دقائق معدودة..

والدته تحادث الجارات وتضحك, تضحك ملء فمها, تضحك شامتة لسماعها طلاق صديقتها المقربة..

الأولاد يختلسون النظر إليه, اشتغل الهمز واللمز, وكأن أحاديث النسوة لا تكفي, انتقلت عدوى التهكم والشماتة للأنجال أيضا! يقلدون طريقته في التدخين ويتضاحكون ساخرين!

كتم سعاله بكفه, وذهب إلى الحمام حيث أقفل على نفسه الباب هناك.. شعر بشيء من السكينة.. أنا داخل مكان نتن الرائحة ومقفل, لا أحد يحس بي, لا أحد يسأل عن وجودي, أنا منبوذ كصراصير هذا الحمام! لن يفتقد وجودي أحد أبدا!

ثم لم يشعر إلا وتيار كالكهرباء العنيفة يسري في عروقـــه.. انتفض بدنه بضع مرات, وتدفقت رغوة بيضاء بغزارة من بين شفتيه, وتحولت مقلتاه للون أبيض مفزع وكأن مسا قد أصاب بدنه الضئيل..

توقف أخيرا عن الانتفاض, وهمد تماما كما لو استحال جثة هامدة..

*****

عندما فتح (شاهر) مقلتيه الواهنتين وجد نفسه راقدا علـــى سريره داخل سكن الجامعة..

كان العرق يتسرب من جميع مـــسامات جلـــده, وبنـــبرة هستيرية أخذ يردد وأنفاسه تتلاحق كما لو كان عائـــدا مـــن سباق ماراثون:

– مجرد كابوس! مجرد كابوس مفزع!

نظر من خلال النافذة فرأى الأفق يصطبغ بلون أرجـــواني خلاب, دفعه لأن يقول ساهما:

– الفجر ينبلج!

نهض من على الفراش بتثاقل مرددا في خلاص:

– كابوس مفزع.. مجرد كابوس مفزع!

الجزء الأول

١

تدحرجت كرة قدم متسخة بالطين الجاف وعلامات الأصابع العارية بين الأقدام الحافية العنيفة, صغار يمارسون اللعبة كأنهم في حرب, يتشاجرون بأكثر مما يتسلون, ويحاولون تحطيم سيقان بعضهم البعض بهجمات رعناء هدفها الأذية البحتة..

في ذلك الحي الفقير القذر, حيث يجلس الشبان بجذوع عارية طلبا لبعض النسائم الباردة التي لا تجيء ذات ظهر قائظ, وتبرك النسوة الدميمات كالنوق لغسل الخضار تمهيدا لبيعها, مراقبات أنجالهن بعيون غير مهتمة وألسنة لا تكاد تتوقف عن الثرثرة القاذفة, والرجال بادوا الشراسة والخطورة وهم يتبادلون الأحاديث وتدخين اللفائف يدوية الصنع, ولربما تلمح مسنا عركته الأيام يضطجع على قارعة الطريق متضمخا بالعرق والذباب مجتمع عليه فلا يكاد يطرف له رمش..

بدا حي أشباح لا أثر للحياة في حياته, فقط ممارسات رتيبة كئيبة, الشتائم الداعرة ترتفع فتستقبلها آذان النسوة بضجر غير مبال, والعفاريت الصغيرة تتشاجر بشراسة تعجب الشيطان, يتقاذفون فيما بينهم فلا يسلم عرض قط..

تمر فتاة لعوب مرتدية تنورة قصيرة ومطوحة بساقين ملويتين بمهارة, فيتصايح الشبان بجموح مطالبين المليحة الجريئة بمزيد من الجرأة, يطاردونها بنظرات نارية وأفواههم إما مفغورة أو ناطقة بالعبارات القذرة, فلا تظهر المليحة اشمئزازا إلا لركض الجرذان قرب كعبيها, وقد تتوقف لترد لهم بعضا مما قذفوها به, فتبصق صوب هذا وتشتم أم ذاك, ثم تلصق بالجميع تهمة "أبناء الحرام" قبل أن تغيب..

تحدث ثورة مفاجأة بين صفائح القمامة الصدئة, إذ وثب قط قذر أعور بغتة بغية اصطياد جرذ يقتات به, قبل أن يهرع بعيدا في الركن بعدما ظفر بغنيمته المتقاطرة قذارة..

الرائحة كريهة, لا تحتمل, كأنها رائحة الغوط في قماط طفل, والجميع غير آبه للروائح, للشتائم, للمشاحرات, كأنه جحيم نتن على الأرض, بقعة لا تصدق وجودها ما لم تراها, والمحزن أنك تراها.. كذا فكر (شاهر) متأملا "ديستوبيا" التي ولجها بقدميه.. بدا أنيقا مقارنة مع الأسمال التي يتلفعون بها, ارتدى بدلة رمادية غامقة مبخرة وقميصا سماويا, بصره محجوب بنظارة سوداء رمق عبرها الحياة الوحشية مهموما, ربما كانت فكرة سيئة, قدومه إلى هذا المكان؟ بم كان يفكر بحق الجحيم؟ المكان عبارة عن وكر, جحر ثعابين وليس مسكنا لبني آدم.. اشرأبت الأعناق صوبه, الجميع توقف عما يقوم به, كأن الزمن ذاته توقف في الحي القذر, حتى حركة الجرذان في

المكبات ركدت, الأنظار مثبتة عليه, تتابعه بشغف وكراهية وتحفز..

الصغار توقفوا عن المشاجرة وهتك الأعراض بالألسن, الكرة تتدحرج ببطء حتى استقرت بين قدمي الغريب.. تأملها ساكنا قبل مد أنامله والتقاطها.. ببطء رفعها حتى واجهت بصره, كما لو كان يتأمل كرة كريستالية ذات أنوار خلابة..

التقط الشبان طرف الخيط, رحبوا بالمواجهة, اخرجوا السلاح الأبيض واقتربوا بحماسة لا تخلو من حذر, بدوا كنمور باحثة عن فرائس, ففتح أنامله ليسقط الكرة..

تدحرجت جانبا, فتابعتها أبصارهم كأنها رسالة ما, عادوا لمراقبته, كان صامتا كصنم, يتابعهم ببصره كما يتابعونه, كانت معركة تحديق بالأبصار..

- "ماذا تريد؟"

أخيرا كسر أحدهم حاجز الصمت, حتى أن بعضهم تنهد بارتياح, كان الصمت مطبقا وغريبا في حضرة ذلك الغريب, وتحمس أكثر الصبية فتعالت الصيحات المتحمسة:

- "اخلعوا عنه ثيابه!"

- "افتحوا بطنه!"

- "اخرسوا يا خنازير!!"

انخرس الصبية كالدمى التي فرغت من بطارياتها, في حـــين رجع الاهتمام المتربص كله صوب الغريب الـــصامت, هـــل ينطق؟ متى ينطق؟ لماذا لا ينطق؟ أهو أصم؟ أم أخـــرس؟ أهـــو مجنون كي يظهر بقدميه في حي كهذا الحي بهندامـــه المرتـــب ذاك؟

- "أبحث عمن يدعى (ضيوي)!"

بدت جملة عادية خرجت من فم طبيعي, لكن بدا لوقعهـــا على نفوسهم أثر الصاعقة, وأدركوا -على نحو ما- أن الغريب الآن بات ممنوعا من اللمس حتى ينظر كبيرهم في أمره..

- "هلم.."

ساروا وسار يتبعهم دون أن يحيد بصر أحدهم عن الدرب المقصود, زقاق ضيق عبروه, مياه المجاري الطافحة في كل شبر وركن, والناموس متجمع فوق البرك المائلة للخضرة المتعفنـــة, تقاطرت مياه الثياب المغسولة والمنشورة على الشرف فـــوقهم كالأمطار, الرطوبة تزداد خنقا كلما ضاق الممر, رأى (شاهر) في آخره بابا شبه موارب, وقبل أن يبلغوه توقف الفتى الـــذي يقودهم قائلا للجميع:

- انتظر..

قصد بها الزائر طبعا دون أن ينظر له, وغاب بالداخل مـــدة قصيرة تاركا الشاب بين أعوانه يلوكونه بأنظار حادة تنبش عن

سر زيارته لمقر قيادهم, لكنه وقف غير آبه لشيء, لا يتحرك به سوى صوت أنفاسه المنتظمة..

- "ادخل.."

انبثق الصوت من العتمة المبهمة, فجاوز (شـــاهر) الجميـــع ليلج بخطى رتيبة وجرأة غير معقولة, لم يزر مكانـــا كهـــذا في حياته من قبل, لكنه مستعد الآن لما هو أكثر..

لم يتبين سوى ظهر الفتى المتحرك بسبب العتمـــة الدامـــسة والنظارة على عينيه, لكنه لم يخلعها, تبع الفتى فحسب إلى غرفة تشع بضوء أحمر خانق.. وبالداخل ممـــدد رجـــل في أواخـــر الستينات ذا حواجب كثة على أريكة خشبية مرتديا جلابيـــة نوم, وقد وضع قدما فوق الأريكة وأراح الأخرى على البلاط حيث جلست غانية غير محتشمة تجهز له "النارجيلة"..

تصاعد البخور من مبخرة عثمانية متدلية من السقف, على الجدران فراء ثعالب وبضع قطع أثرية متدلية معلقة, غـــدارات وسيوف من عهد إسلامي مندثر..

الجدار وراء الرجل حمل لوحة ذات إطار مزخرف دونـــت عليها آيات سورة الصمد, فكر (شاهر) بالتناقض هنيهـــة دون إظهار ذلك في تعابير وجهه المستكينة..

- "دعونا.."

خرج الكل إلا الغانية المشغولة بالتعمير, وبنظرات ناعسة ولهجة ملول غمغم الرجل دون أن يرفع وجهه لتأمل ضيفه حتى:

- نعم؟

- (R.D.٦)..

- آه!

قالها بفهم, باستهزاء.. كما لو كان المطلب شريحة قمر صناعي متطور من ميكانيكي سيارات نصاب, ماذا تصنع تحفة مثل (R.D.٦) في هذا الجحر القذر؟

أخيرا اعتدل (ضيوي) في جلسته, لا ذوق ولا احترام.. لقد ولج الوكر بقدميه وعليه التحمل..

تجاهل (شاهر) رغبة القتل المعتمرة في نفسه, وبتؤدة غمغم:

- أريده ولو نبشت الأرض بحثا عنه..

فتبسم الرجل واضعا قدمه المشققة في حجر الغانية قائلا لها بازدراء:

- دلكي..

نفذت بانصياع تام, ونظر الرجل حوله باحثا عن رفقة غير موجودة قائلا بسخرية:

- تائه يا أولاد الحلال!

- أين أجده؟

- ارجع يا بني فالعمر..

وإذ بشاهر ينقض عليه ليطبق على حنجرته بأصابع كالكلابات! فأطلقت الغانية شهقة, وقبيل إطلاقها صيحة باغتها (شاهر) بتحديق زجر لا يمزح, فانكتمت..

اختنق الرجل, سال زبده حتى بلغ القبضة التي لا تمزح, واستمع إلى لهجة تهديد لا يبدو صاحبها غاضبا إلى ذلك الحد!

- "لا تمثل دور الريّس علي! أنا لا أمتثل لبصقة, وأنت مجرد بصقة.. هل ينصت عاقل لبصقة؟"

- "آغغغغغ!!"

جرس هاتف يرن, ثمة هاتف, هاتف على الطراز القديم من زخارف مذهبة.. أفلت (شاهر) ضحيته التي فقدت الثقة المتعالية تماما, وبذعر تناولَ (ضيوي) السماعة ملهوفا وهو يدفع الغانية بقدمه في وجهها صارخا بغضب فجره هلعه:

- إليك عني! خارجا!

هرعت للخارج مذعورة ويدها لا تكف عن لطم صدرها في حين وضع (ضيوي) السماعة على أذنه, لم ينطق بحرف

وهو يستمع للطرف الآخر يتحدث, أومأ برأسه قبل أن يـــضع السماعة بمكانها متأملا (شاهر) بنظرات متخوفة..

لم يتفاجأ (شاهر) عندما انكشف جزء من الجدار, دار على محور عامودي سامحا بمرور شخص واحد لا أكثر, رأى نـــورا أبيض كاد بأن يطغى على الضوء الأحمر المقيت الذي وقـــف بمحيطه, وبنبرة شابها توتر دمدم (ضيوي):

- المعلم سيقابلك..

رمقه (شاهر) بصمت, قال المعلم بضم الميم لا بلهجة أهـــل مصر, قالها بأسلوب المثقف باستخدامه تلك الكلمـــة كأنمـــا يتكلم عن (أرسطو) لا عن صاحب غرزة أو مقهى..

لم يتردد ولو حتى ثانية, اندفع للداخل تاركا التابع الكلب, كان مجرد كلب من كلاب المعلم إذن كما توقع بالضبط..

لا وجود سوى لملك واحد على أية مملكة, حتى وان كانت كهذه في السوء..

٢

على النقيض تماما وجد (شاهر) نفسه في مكتبة!

المكان مرتب ونظيف ينم عن ذوق رفيع في انتقاء الأثـــاث غالي الثمن, المكتبة احتلت الجدار الخلفي وراء المكتب العريض الذي اصطفت عليه تماثيل برونزية لحور متموضـــعات, ثمـــة صندوق خشبي يحمل صورة أيل يبدو وأنه صندوق ســـيجار, أقلام شفرة فضية, سكين فتح خطابات..

وعلى كرسي دوار وثير جلس.. المعلـــم, لا يمكـــن إلا أن يكونه, رجل وقور يرتدي نظارات مظللة وبدلة أنيقة ســـوداء مضمخة بعطر فاخر وربطة عنق كحلية دسّ بها دبوسا مذهبا, كان ممتلئا, لحيته كثة ذات لون رمادي تخللته بعـــض حمـــرة الحناء, شبه أصلع وقد استعان بتطويل ما تبقى من شعر حـــتى بلغ الكتف..

مدّ يده بترحاب داعيا ضيفه للجلوس على الكرسي الوحيد الموجود هنالك, بدا كرسي اعتراف أو تعـــذيب, لم يجلـــس (شاهر) بل ظل واقفا ينتظر..

أشعل المعلم غليونا عنابيا بتؤدة مراقبا النظارة السوداء الـــتي أخفت عيون صاحبها بإحكام.. فرغ من طقـــوس الغليـــون, فنفث دخانه الضبابي كقاطرة وهو يفتح الصندوق عارضا على (شاهر) سيجارا يدخنه..

- "لا ألمس هذه الأشياء فهي لا تعجب سوى ضيوفي, إنهم يحبون التظاهر بالفخامة وكأنهم رجال أعمال أو ملوك, يظنون مجرد تدخين سيجار سيجعل منهم أصحاب شأن وهم مجـــرد صعاليك!"

- "لا أدخن.."

رمقه الرجل بعيني صقر, كانت حـــدقتاه نافـــدتين يمكـــن تبينهما من وراء زجاج نظاراته المعتمة, بدا وكأنه استشف كل ما يبغيه من مراقبة تعابير ضيفه المتجهمة, وبثقة همس:

- أمتأكد أنت؟ لا أحد هنا يرفض الدخان, إنه الهواء الذي نتنفسه!

- أقلعت..

- هذا شأنك, يقولون أن للإرادة علاقة بـــالإقلاع, هـــذا هراء, الإقلاع يأتي عندما يضجر المرء ويفقد لـــذة الإحـــساس بالشيء..

- (R.D.٦)..

- آه.. بديل السجائر الأنسب! أتحلم بإيجاد المخدر رقـــم واحد؟

- أين أجده؟

- خارجا ستجد العشرات, لا بل المئـــات مـــن الـــضباع الجائعة, أعتقد أن خواطر راودتك بشأن هذا المكان وخارجه,

لا ريب بأنك فكرت, ملك خفي للصعاليك يسعه السيطرة على تعطشهم للدم والمال والمخدرات والنساء, يضع توازنا للإبقاء على سير الأمور الطبيعي دون مشاكل..

كما لاحظت أجد عزائي بالقراءة, أنا رجل متعلم يا سيدي, ولن أقول عن نفسي مثقفا, المثقف لا يقول عن نفسه: أنا مثقف! هذا زيف لا شك فيه, مكابرة وغرور أيضا..

طالعت كثيرا حتى شاب بصري بعض الضعف, لكن لا بأس, هذه ضريبة أدفعها عن طيب خاطر لمعرفة أفكار الأقدمين, كما أنها تنسيني ما يدور من هراء وخواء في العالم الخارجي..

في الحياة أمور أهم من مجرد معرفة مكان شيء أو شخص, من الانتقام! الانتقام سخافة جعلتنا أقرب للهمج, فقد علمتني السنون مراقبة الجميع بعيون الحياد وبكثير من الشفقة, هل سمعت بسيزيف؟

- دلني على المادة وإلا..

- كلنا سيزيف! كلنا ذلك الإنسان العابث, أعمالنا هراء وأقوالنا هواء, نحن نأكل ونشرب ونتعاشر, أنت قادم من عالم تأكلون به لحوم الخراف والطيور وتشربون الماء والعصائر, تتزوجون كي تمارسوا المتع الجسدية وتنجبوا ذرية تدركون سلفا ميراثها في الحياة..

ثم تهبط للقاع بقدميك؟ في هذا الوكر؟ حيث يأكلون لحوم بعضهم بعضا؟ ولا يشربون سوى الخمور الرديئة؟ هنا الرذيلــة بأسوأ صورها, والميراث مجهول أيضا.. بائع مخدرات؟ قــواد؟ المستقبل هنا مظلم كقلوب الكفار يا سيدي.. أنت قدمت من عالم مثالي خيّر بقدمين متهورتين, تظن عالمنا فهرسا في كتاب الفساد والظلام مفعما بمصطلحات المخدرات والدعارة, أنــت وأمثالك تزورون المكان لمصطلحات عجيبة أجدها مــضحكة لحد البكاء, تحسبوننا سوبرماركت للأشياء العفنة!

الأحراش في كل مكان يا صاحبي, ليس عالمك الذي قدمت منه باستثناء, الآن وأثناء حديثنا ســتجد زوجتــك نائمــة في أحضان شخص آخر, ستجد رجلا وقورا يعمل كأســتاذ في مدرسة ابتدائية يداعب صبيا مداعبته لفتاة, ستجد في فنــادق الدرجة الأولى التي يصورونها في البرامج السياحية على أنها الجنة غرفا مقفلة, هل فكرت بفتح إحداها؟ ستجد رجالا مع قواصر وعجائز مع مراهقين و..

- لا تحدثني عن عالمك فلم آت لسماع الحواديت المقيتة..

لم يغضب الرجل, ابتسم فحسب قائلا بتؤدة:

- لسنا بمستنقع لبصق الخيرين من أمثالك, فارحل بــسلام وابصق في مستنقعك الخاص..

- سأبصق في وجهك إن لم..

قاطعه الرجل مقهقها, ثم أشار بسبابته قائلا ببسمة واسعة أظهرت نواجذه:

- لا تصدق ثقتك بنفسك فهي زائفة!

لا تصدق روايات البطولة فالكتابة أسهل من الفعل, أستطيع بقلمي هذا أن أسلخ جلد دب بأظافري لكن الواقع أعسر بكثير.. صدقني!

صرخ (شاهر) ضاربا سطح المكتب بقبضته:

- (R.D.٦)؟!

- آه! الإدمان مشتعل, مثل اللافا في العروق!

استعاد (شاهر) قبضته لاهثا كالراكض, فهمس المعلم:

- لا تحاول الاستخفاف بي فأنت لم تخفني..

- أريد المادة اللعينة فحسب.. أرجوك!

راقبه المعلم مليا.. كان يحاول النبش بعنف فيما وراء نفسية هذا الشاب الواقف أمامه, لكنه اصطدم دوما بنظاراته السوداء..

- "اخلع هذه.. دعني أنظر في عينيك.."

مدّ (شاهر) يده وخلع النظارة, فنظر المعلم بصمت طويل..

قطعه أخيرا لما قال بشغف:

- مجرد مدمن تعس آخر..

- لا أريد شفقتك..

- شفقتي؟ الشفقة ثمنها بخس في أسواقنا!

- كم تريد؟

- كم ستدفع؟

- ما تطلبه..

- المطلوب فادح لن تقدر عليه..

- لا يهمني..

- ربما أساعدك حقا, فأنت كائن ميال للوثب بين العالمين, بإمكانك تحقيق الكثير, عزمك على السير حتى مبلغ الهدف أمر مثير للاهتمام!

أرى ألا ضير من مساعدة زبون قديم وعزيز على جيوبنا وخزينتنا لكن بشروطي أنا, اعلم أن المعلم ليس مجرد لقب تافه, أنا الحياة هنا أهبها لمن أشاء, أنا الموت أوقعه بمن أشاء, أنا إله صغير في هذه البقعة الزائلة المنسية من الأرض, لا أهاب ويهابني الجميع..

- إذا أردتني أن أخر ساجدا لك فأنت واهم..

- لا أتوقع منك غير ما قلته, لا تقلق فأنت لست من عبادي, أنت (إبليس) عندما أبى واستكبر!

- هل قلت أنك مجرد ثرثار؟

- أحسبك ذكرتها سابقا, لا بأس.. إذا أردت المادة فهي لك, لقد أجهدنا تدبير كمية شحيحة ونادرة, هي لك لكن بشرط واحد قد يكلفك الكثير.. أنا لا أحاول إخافتك بل أجرد الحقيقة من ثيابها أمامك لتتأملها بكل تفاصيلها القذرة.. هل أنت مستعد للتجربة؟

- بكل تأكيد..

- أنت ممن يخافون بعسر, مجيئك إلى هنا يدل على ذلك.. أنا أحاول دفعك إلى رؤية الحياة بمنظورها الحقيقي, أنت مرتاح نسبيا كونك في مكتبة نظيفة, تخاطب رجلا متعلما أنيقا في غرفة نظيفة ومعطرة..

تذكر الأنجاس والعاهرات والصبية الأنذال, تذكر (ضيوي) والروائح الكريهة.. كل هذا مجرد غيض من فيض..

غابة البشر ليست بحاجة لملك, الكل يسعى بوسائل القتل والنهب حتى يصير الآمر الناهي, الدرب هنا ملوث, ملوث بشدة, تفوح منه رائحة نجاسة لا توصف, والمنظر لا يصدق!

عد إلى حيث الأمان, جد عالما طبيعيا يبعد كل البعد عن بؤرة الجنون, لا تجعل من نفسك عرضة للضياع من أجل هدف أحمق!

لا تدع الحمق يدمرك!

رمقه (شاهر) بنظرات ثاقبة خبيرة, لقد أدرك أمرا لا يمكن إغفاله عن مدمن محترف, إنه يتعاطى المادة منذ أربعة أعوام, لم يحتفظ خلالها بمسلك واحد يسلكه المدمن المخبول, كان مدمنا ذا أعصاب حديدية, يدمن وهو يفكر, ولا يتصرف بطـــيش.. نصف المدخرات على الأكل والشرب والإيجار والنصف الآخر على التعاطي, (R.D.٦) مادة مختلفة عن جنون الكوكـــايين والهيروين المطبق, إنه مخدر يختلف عن سابقيه, تطور من واحد إلى ستة بغير عبث, مخدر راق إذا ما تم تصنيفه بدقة..

ميل بوجهه ليطالع تقاسيم المعلم المزعوم, وبثقـــة شـــابتها سخرية همس:

- أنت مدمن على (R.D.٦)! مثلي تماما!

وتراجع متوقعا اشتعال غضب المعلم, إلا أن الرجل صـــفق بيديه محدثا دويا كالمفرقعات, وقهقه قائلا:

- عظيم! ممتاز! أنت الضالة المنشودة حتما!

- يجدر بك فعل شيء بشأن جنون العظمة الذي ينتابـــك, إن (R.D.٦) مخدر مؤذ نفسيا, أعراضـــه تبـــدأ بـــالأمراض النفسية وتنتهي بالعينين المحمرتين والحكاك وتنميل الأطـــراف معظم الوقت..

- لا تخف, لن أهرش جسمي أمام أحد, أستطيع الـــتحكم بجربي..

- هذه مشكلة تخطيتها أنا الآخر منذ زمن بمرهم دوالي الساق!

وتبسم متشفيا, حتى الملك سقط ضحية مملكة السوء خاصته, هذا أول ملك يفقد السيطرة على عرشه ويتحول إلى تابع يمارس ما يمارسه أي تابع مدمن!

خلع المعلم نظاراته مطالعا (شاهر) بحدقتين دمويتين كالأبالسة, وراقب مطولا قبل قوله باهتمام:

- كيف تخفف من حمرة عينيك بهذه الصورة؟

- أستعمل قطارة خاصة بالعيون, أتريدني أن أخبرك بالتركيبة؟

- يا حبذا!

- هنالك مقابل طبعا!

قهقه المعلم مجددا, واستعاد نظاراته على جفنيه قائلا:

- لا بأس فقد اعتدتها, كما ترى يا سيدي أنا مهتم بمدمن متمكن جيدا من أدواته, رأيت على شاشتي قوتك رغم الإدمان, فأدركت أنك مدمن يقظ! ليس كديدن الصعاليك الذين يغرقون في دوامة السم, فلا ينتشلهم من القعر سوى أطباء المشرحة..

ما دمنا نفهم بعضنا سأخبرك بالمطلوب حالا ودونما إبطاء, نحن بحاجة لباحث! باحث متمرس يستطيع اطلاعنا على النتائج المترتبة لإدمان مخدر(R.D.٧)..

- (R.D.٧)؟

- مفاجأة أليس كذلك؟ العلم لا يتوقف عند حـد, هـذه المعلومة الصغيرة سرية للغاية, لكنني سأجرب الثقة بك..

نحتاج إلى مدمن يقظ لتجربة المخدر المطـور قبـل إنزالـه السوق للتداول, معرفة ما إذا كان ناجحا أم لا, ابتدأنا بالفعل إنقاص كمية المخدر القديم حتى صار سلعة نادرة في الـسوق, (R.D.٦) كان هوسا حقيقيا, لكننا نسعى لجعل (R.D.٧) أعجوبة العالم الثامنة!

- وأنا فأر التجارب؟

- ذكرت كلمة "باحث" لأنها أقل قسوة من فأر تجـارب, سمه استطلاع رأي! استبيان! يجب أن ندرك مدى قوة المخـدر المطور أو ضعفه, يجب عمل مقارنة ما بين المخـدرين لرؤيـة نتيجة سنوات العمل الشاق..

- هب أنني رفضت؟

- لا إجبار هنالك, لكن حالك سيصير من حـال البقيـة المتأزمة خارجا, ستظل تبحث عن مخدرك حتى الإعيـاء ولـن

بجده, فكر بالموافقة, فالموافقة معناها تزويدك بمخزون كـــالحلم من المخدر المطور, فإذا أثبت فشله زودناك بكمية هائلة مـــن المخدر القديم.. ماذا قلت؟

ومدّ يده طلبا للمصافحة, فتفكر (شاهر) هنيهة..

تنفس بعمق ثم سأل:

- أتنوي تجربته؟

اكتفى المعلم بابتسامة صفراء و لم ينطق, فأناب (شاهر) عنه بالإجابة:

- تريد تجربته, الفضول يساورك بشأن متعة جديدة, لكنك تخشى العواقب..

- العواقب؟ كالموت مثلا؟

- كالموت..

- على العموم هذا عرض مغر, لكنك غير مجبر على تقبله..

٣

مشى البدين بقميصه الداخلي الملوث ببقع العرق وزيت القلي وأظافره الطويلة الفاحمة تهرش لدغه بعنف من أثر قرص البعوض, تبعه (شاهر) متناسيا رؤيته عبوات البيرة الرخيصة الملقاة في أركان البناء والجرذان التي أولجت أفواهها لتتذوق من فتحات العلب كأنما تبحث عن السكرة بدورها, اشتم رائحة قيء, أنصت لأصوات صراخ عنيف, عراك بين رجال وعشيقاتهم, تعرف أنفه رائحة الحشيش المدوخة, زكمت أنفه بقوة..

قال البدين وهو يهرش إبطه غزير الشعر:

- الأجرة عشرة ليرات يوميا.. لا ماء, إذ يتوجب عليك البحث عنه, لا كهرباء أيضا, لكن هذا لا يهمك أليس كذلك؟

كيف تعرف أيها البدين القذر ما يهمني وما لا يهمني؟

حتى القطة التي مرت بجواره حامل, تماما كالبشر, عالم ملوث, ما الفارق بين العالمين؟

انفتح باب إحدى الغرف لتندفع منه طالبة ثانوية, عرف ذلك من مريولتها وحقيبتها المدرسية, الدموع تغرق مقلتيها مع الكحل, ارتطمت به فأوقعت حقيبتها.. تناولتها مغطية فمها براحة يدها..

- "(شهد) ارجعي بحق جهنم!"

كذا ارتفع الصوت, خشنا لا يخلو من تمالك.. مـــرا أمـــام الباب فأبصر رجلا واقفا بثوب داخلي, صرخ كالمسعور وهو يطالعهما بوجه محتقن:

- ماذا تبغيان؟! اغربا قبل أن..

ابتعد البدين بخطى سريعة كأن الشيطان في أعقابـــه, تبعـــه (شاهر) بذات الخطى الرتيبة, لن يتراجع ولن يتـــردد, هـــؤلاء مجرد حيوانات, وإذا تطلب الأمر تحوله إلى حيـــوان كـــالجميع فليكن..

- "غرفتك.."

ومدّ يدا ملوثة بالسخام فنقده (شاهر) الأجرة, ناوله المفتاح الصدئ وغادر وهو لا يكف عن التجشؤ..

دلف (شاهر) منزله الجديد.. المكان قذر قذر لأبعد الحدود, كأن حيوانات سكنتها قبله, غبار وشباك عناكب, أمر مفروغ منه, لا, لن يكلف نفسه عناء إلقاء نظرة على الحمام فرائحتـــه منتشرة في الغرفة..

الفراش ملوث بالعرق الجاف وماء الرجال — ولربما النـــساء أيضا—, قام بقلب الفراش فوجده أفضل حالا.. هكـــذا رقـــد بكامل ثيابه وحذاءيه وحتى نظاراته السود متـــأملا الـــسقف مشقوق الطلاء ..

لم ينم, كيف ينام هنا؟ في غرفة الشيطان؟ والبعوض؟ رباه! ماذا عن الرائحة؟ أهي غرفة أم قبر؟ أيرقد على فراش أم داخل تابوت فرعوني؟

الويل كل الويل لمن سلك سبيله.. كلمات المعلم لا زالــت تتردد داخل رأسه, (أفلاطون) الحي المزعوم, تبا له من أفــاق وتبا له من حي وتبا لهم من مخلوقات تضاهي الشياطين..

مجرد قتلة وزناة مدمنون, لا يستحقون شيئا من كرم الدنيا, لطالما مقتهم, مقت الشر الصريح غير المغلف, الشر الحيــواني الشره الممتطي أجساد النساء وذراعه مشوه بحقن السم وقــد كشف فمه الفاغر عن أنياب ملوثة بدماء الجنون..

الإدمان شهوة, إشباعها ألذ وأشهى من قضاء الوطر, يشعل الحياة في روحك الساكنة, شرارة حياة في برميل من البــارود, يفجره, يجعل الميت يبعث حيا من جديد, ها قد وجد ســبيلا للحياة بعد أن قضى جل عمره كالمتعفن في قــبره.. إذا كــان الثمن الانصياع لأوامر المعلم فليكن, لقد وجد أخيرا مــدعاة للعيش من جديد حتى وإن كان الانضواء تحت رايــة قــانون الغاب.. خالطت أفكاره القاتمة أصوات ضــجيج وصــخب حيوانات العالم الخارجي.. أنصت للمــشاجرات والــصراخ والبكاء والضحك بنصف أذن كالحالم قبل أن يغلبه ســلطان النوم أخيرا..

كان القارب الخشبي يتأرجح في عرض بحر قاتمـــة مياهـــه, السماء مغطاة بغيوم دخانية, والأفق لا يبشر بيابسة..

وجد نفسه جالسا في القارب بسكينة عجيبة, متمتعا بالعزلة بلا أمل في النجاة, البعد الآخر المجهول, لا بشر ولا أمل..

أفاق في التاسعة صباحا, لا أذان لأنه لا مـــسجد, كـــان هنالك مسجد وهدم, بالأحرى تهدم من تلقاء نفسه, يشاع أن إمامه صلى الفجر وحيدا بلا أمل في حضور ابـــن آدم واحـــد يهاب ربه..

لم يحدث أن رمم المسجد, كان آيلا للسقوط كأية بنايـــة متهالكة, تهاوى أخيرا وعلى رأس الشخص الوحيد الذي عاش بمرارة وخشية من الله..

نهض (شاهر) مشبعا بعرق غزير وآثار لسع مثيرة للحكاك, ربما من الناموس وربما من آثار الإبر السابقة, لا ماء لغـــسول الوجه..

- "ولا إفطار طبعا!"

غمغم بسخرية جامحة, وخرج من الغرفة العفنة متبينـــا ألا مشاجرات هنالك, الكل راقد كالأموات الآن, ولن يـــستفيقوا إلا في الليل كالوطاويط..

الأبواب شبه مواربة إذ لا شـــيء يـــسرق, لا حرمـــات فالعذاري صرن منتهكات, سبيلا لكـــل مـــن هـــبّ ودب,

والداخل كالقاطن يظفر بكل شيء, بالغرفة والفتاة, وبالطبع تخضع له الأخيرة مستسلمة كالجارية!

كانت الخواطر وحشية, ولم يصدق (شاهر) رحلة الخواطر المؤرقة التي تدفقت في ذهنه, أي عصر هذا؟ أي انحدار؟

أين الشرطة بحق الجحيم؟!

كان يعلم مسبقا السبب, فالسلطة الأولى والأخيرة هنا للمعلم, المعلم المدمن! حتى الشرطة في جيبه, هو اعترف له بذلك..

- "إذا أردت صنع عالم "ديستوبي" مثالي فعليك بالشرطة أولا, دعهم يرون جزءا من النعيم الواعد, دع لعاب رجل الأمن المعتد بنفسه يسيل حتى يجف, دعه يشهد أن عالم الانحدار ليس بذلك السوء, هنا يستطيع رجل أمن قبيح وممتلئ أن يظفر بأجمل فتاة وبأبخس سعر, كل القاذورات التي يأبى إظهارها في مجتمعه الذي يزعم التحضر بإمكانه التبجح بها هنا, لكن لكل شيء ثمنه طبعا..

هل تذكر عندما كان والدك يهددك بقطع المصروف أو بخلع فيشة التلفاز إن لم تذاكر؟ كنت تخاف على مصروفك وبرامجك التي ستفوتها لدرجة التظاهر بالمذاكرة كي لا يضيع منك شيء مما تشتهيه وتتمنى اقتنائه.. أولئك الذين يتبجحون

بالشارات الأمنية لن يتخلوا عن المتع البهيمية هنا, إنها "يوتوبيا" رجال القانون قبل أن تكون يوتوبيتنا نحن!"

يا لها من فلسفة ويا لها من حياة! الإدمان يسبب الحكمة أحيانا.. لم يكن (شاهر) رجلا ملتزما لكنه يؤمن بالله إلى حد عدم التمادي أكثر, كان ينظر بوقاحة إلى مفاتن النساء, ويغفل أكبر عدد من الصلوات, ويحلف يمين اللهو ألف مرة في اليوم..

- "أوزن أوزن أوزن!"

متشرد على قارعة الطريق, صبي في الثانية عشرة من عمره يحمل ميزانا, يا له من عمل لا يخطر على بال, أثمة حقا من يكترث لمعرفة وزنه؟ إذن فالله يرزق من حيث لا يعلم هؤلاء.. حقيقة!

من مستودع مواد تموينية رآهم خارجين بأحمال تعجز الحمير عن حملها, كلهم أعمار متراوحة مابين العاشرة والحادية عشرة أو أكبر قليلا, لكن ظهورهم مقوسة كالعجائز, ووجوههم مغبرة بالطحين الذين يحملونه على ظهورهم..

قادته خطاه الرتيبة إلى مطعم (سفرجل).. إذا كان الأكل هنا بنظافة أهله..

- "أهلا بالبيك!"

تحية ساخرة التقطها سمعه, فردّ متجاهلا ما سمعه:

- فلافل, حمص, زيتون أسود وشاي..

- كما يأمر البيك!

- لست بيكا!

- قال البيك شيئا؟

صمت (شاهر) على مضض, لن يضيع الوقت في تحطيم أسنان الرجل بمعدة خاوية, ربما عقب أن يشبع..

لم يتجاوز عدد الزبائن الستة أنفار, كلهم عمال لديهم رزق شح لكنه حلال على عكس أكثر سكان الحي, احترمهم (شاهر) وإن لم يعرفهم, كفى أنهم يعملون حتى وإن أضاعوا الأجرة في سكر أو مخدر أو أحضان غانية! ربما لأن عيونهم مجهدة تحمل أسمى معاني المرارة الصادقة..

- "صباح الخير يا عم (سفرجل).."

دخلت برشاقة مطوحة بالهواء حقيبة جلد مدرسية, مرتدية مريولة بنات الثانوية, ورابطة شعرها الأسود القصير كيفما اتفق, كانت هي, الفتاة الخارجة من عند جاره وهي تنشج.. ماذا كان اسمها؟

- "صباح الغزلان! كيف (شهد) المجتهدة؟"

- "اصنع لي شطيرة فلافل بسرعة.."

- "الأميرة تأمر والعبد ينفذ.."

بدت طالبة بريئة, في الصباح يشرقن وفي المساء يظلمن, وعن أية دراسة تتحدث؟ البارحة أيضا كانت مرتدية ذات

المريولة, تبيت في أحضانه وفي الصباح تذهب للمدرسة؟ أهـذا هو النظام؟ أتراها تدفع رسوم الدراسة بعرق جسمها أيـضا؟ هذا أسوأ من أن يكون حقيقيا..

توقفت عن التطويح لما وقع بصرها عليه, مليحة حقا, ذات بشرة نضرة قمحية اللون, صحيح أن أنفها أفطس قليلا, لكن وجهها فيما عدى ذلك إبداع من إبداعات الخـالق الـتي لا تحصى, ذات قوام ناضج ممتلئة مفاتنه, عبثت سبابتها بخصلة من شعرها بغنج متظاهرة بتفقد مرطبانات المخلل, لكنـها حتمـا تراه, إنه واضح وضوح القمل في رأس الصلع!

جهز لها الكهل طلبها ملفوفا في ورق جرائد, فنقدته الثمن شاكرة وهرعت للخارج دون إلقاء نظرة واحدة على الغريب! لم يكترث, فهو ليس طفرة في عالم الرجال, ربما مظهره غـير مشجع إلى ذلك الحد!

تناهى لمسمعه أصوات تهليل حيوانية, كأنهـا مظـاهرة أو احتفال بمناسبة فوز فريق كرة قدم بالكأس, ومـن أول الحـي ظهروا, عشرات الرجال تقدمهم واحد مفتول العضلات حمل على كتفيه فتى يلوح بجنزير وابتسامة ظافرة تملأ وجهه, كأنهم أتوا من تحرير فلسطين أو فتح الأندلس مجددا..

رواد المطعم يتهامسون, أذنه مرهفة السمع تلتقط من هـذا وذاك بانتباه..

- "هذا (حيدر)!"

- "فعلها ابن الكلب وانتصر!"

إذن فقد انتصر (حيدر).. على من؟

- "كيف تمكن من (جمر)؟"

- "الرجل كالخرتيت والفتى كعود قصب السكر.."

مبدأ داوود الذي هزم بمقلاعه جالوت يا جهلة! الفتى ماكر وغير سهل كما يتبدى من نظراته, كانوا يقتادونه بفخر أحمق وهو يرمقهم بنظرات شذرة لم يحسنوا قراءتها, ما يهم أنه مبتسم لوضيعين مثلهم..

ربما كان ذاك الجمر خرتيتا كما يقولون, لكن الفتى بدا قوي الشكيمة ذا منكب عريض وعضلات متنافرة الأوردة, نظرته غير مريحة, بها لؤم حيواني خالص..

نقر (شاهر) على الطاولة حتى وضع طعام الإفطار قبالته, مدّ أنامله ملتقطا حبة فلافل التهمها دفعة واحدة, كان مظهره بالنظارة السوداء والهندام الأنيق ملفتا للنظر, كذا أفصحت نظرات (حيدر) المحتدة صوبه.. ابتسمت أعماقه بسخرية, هذا الصعلوك قد يهلك من ضربة سيف واحدة براحة يده القاسية....

أنزلوا الصعلوك عن أكتافهم, فاندفع لداخل المطعم وخلفه عدد من الشبان ارتضاهم أعوانا له وتفرق الحشد بالخارج كل إلى رزقه, طفح وجه (سفرجل) بالبشر صارخا:

- نزل الأكل لسادة الحي وحراسه يا ولد!

بدا (حيدر) معتادا على الأمر هو وأعوانه, نظرات ضجرة بانت في حدقتيه محملقا في الزبائن الذين أكلوا بتهامس عنه, كان يتظاهر بتفقد الرعية -الوغد!- صعلوك بذقن صبارية وثياب بالية ملوثة بعرق العراك يتظاهر بالإمارة, أمر باعث على التقزز..

- "الليلة يدفنون (جمر)!"

من دون مناسبة نطق بها الصعلوك, فاشرأبت الأعناق نحوهم بفضول وتلهف لنبش المزيد مما حصل بالضبط, فتناول (شاهر) كوب شايه - وكان على وشك إنهاء طعامه-, (حيدر) لاحظ, و(حيدر) يريد إسماع الغريب حكاية تقلقل المفاصل وترعد الأوصال.. ليس أنا أيها الطفل الذي يبلل فراشه! ليس أنا! بتبختر لوح أمير الحي وحارسه بيد طويلة الأنامل, قائلا بعقيرة مرتفعة أكثر من اللازم:

- لم أحتج سوى لدقيقة كي أجهز عليه ثم..

وضع ثمن ما أكله ونهض.. صمت كأن على رؤوسهم الطير, ثم تساءل أحد الأعوان مهدئا الجو:

- ثم ماذا؟

لكن (حيدر) لم ينطق, اربد وجهه قبل اندفاع لسانه:

- أنت يا هذا!

تجاهله (شاهر) وهو يمضي في سبيله, فهبّ (حيدر) واقفا وقفة عنيفة أوقعت الكرسي صائحا:

- أنت يا..

توقف (شاهر), التفت, حدق بنظاراته السوداء متسائلا:

- ماذا تبغي؟

- إلى أين؟

- وما شأنك؟

هبّ لتلك الإجابة باقي الأعوان وأحدهم يصرخ بعقسيرة كالرعد:

- أجب على قدر السؤال وإلا..

- وإلا ماذا؟

توقف الزبائن عن الأكل و(سفرجل) عن قلي مزيد من الفلافل, شاب التوتر وجوههم, في حين ارتكز (حيدر) على الطاولة بقبضتيه مغمغما ببرودة:

- أنا لم أكمل قصتي..

- وأنا لا ارغب بسماعها..

- تسمعها رغما عنك!

- لا آخذ الأوامر بمحمل الجد خصوصا من صعاليك..

- من تقصد بالصعاليك أيها الوغد؟

- قصدتكم أنتم, ألم يكن الأمر واضحا؟ أنـــتم صـــعاليك وحيوانات جاهلة إذن!

لم ينطقوا بالمزيد, التفوا حوله والشرر يقدح من أعينـــهم, كانوا ثمانية تسلحوا بمطاو ماضية وجنازير صدئة, ومن لم يحمل سلاحا تناول من على الطاولات زجاجات مياه غازية استعدادا لتحطيمها واستخدام أطرافها المدببة الحادة في الذبح..

صاح (سفرجل) ملوحا بيديه:

- أبوس أياديكم ألا تحطموا المكان!

راق الأمر لحيدر فصاح ساخرا متظاهرا بالتحضر:

- حقا ليس للرجل ذنب بما سنصنعه معـــك.. ســـننتظرك خارجا!

- ارجع إلى أمك يا بني..

تلون وجه (حيدر), ودونما كلمات زائدة هجم على غريمه صارخا كحيوان مسعور, فتلقفه الأخير بخفة وألقى بظهره على سطح طاولته فهشمهما معا!

لم يتحرك (حيدر), بقي بمكانه وهو لا يكف عن الأنـــين, فتبسم (شاهر) أخيرا, لقد سقط حارس الحي بسهولة مدهشة, سقط على يدي مدمن!

فكر أن يستمتع بإغاظته, فليضع طرف الحذاء على رقبتـــه وليضغط قليلا, سيعامله كحشرة كي يعرف مقداره.. لكن لا, كفاه ما أصابه, هذا درس لا بأس به, حتى الأعـــوان تعلمـــوه وبسرعة..

أزاحوا له الدرب برؤوس منكسة وأطراف متحفزة, فخرج بغير هدى باحثا عن سبيل يقصده, هل يعود للغرفة أم يتعرف موطنه الجديد أكثر؟

السوق هرج ومرج لا بيع وشراء, مشاجرات دائرة لا تجارة.. كم من بصقة تفادى وكم من كتف أصابه بخشونة بقصد وبغير قصد, النساء في السوق يفقدن أنوثتهن, والرجال يظهرون برودة وقسوة اتجاههن, فلا همّ للجميع سوى تحصيل أكبر قدر من مال تسديد الفواتير, والمتع الليلية المنسية جهد النهار وشقائه..

حسبوه زبونا يود الشراء فصاروا يطاردونه ببضائعهم الرديئة, تبسم للكل وهو يدفعهم عن دربه بقسوة, يا للسيرك! ألا ترون البدلة يا حمقى؟ كيف أرتدي مثلها وأحضر إلى حيكم القذر بحثا عن الدجاج والخضار والسمك؟

كانت البسطات منتشرة كالذباب حول مكبات القمامة, أكثرها لأدوات مستخدمة في الجراحة العشوائية, أسلحة بيضاء.. أخرى انتشرت فوقها صور خليعة لمغلفات أقراص ليزر من مختلف الأقطار, هؤلاء بالذات لم يطاردوه بالبضاعة, هذا معقول, رجل ببدلة أنيقة يمكن أن يحضر لابتياع أفلام إباحية, وربما للعقاقير المهلوسة, مادة (R.D.٦) اللعينة العزيزة, لكن سوقها يبدأ ليلا, أما تجارة الأفلام الإباحية فمشروعة نهارا ولا بأس عليها..

كان الباعة صغارا, كالعادة يدخنون لفائف التبغ بحنكة الكبار, وعندما يتضاحكون يتمكن من رؤية أسنانهم المصفرة

والنخرة كأسنان العجائز, لقد فقدوا براءتهم منذ اللحظة الـــتي فتحوا بها أعينهم على الدنيا, صاروا شيئا أخطر من الرجـــال, صاروا وحوشا..

سار.. توقف عن السير.. نظر لليمين على الأرض قلـــيلا, بسطة أخرى جلس عليها طفل في السابعة من عمره يضع لفافة هو الآخر, ورجل كهل يشعلها له بعود ثقاب!

- "أنت!"

هزّ الكهل يده بالعود حتى أطفئه وقد علت وجهه مـــسحة تساؤل بريئة, فقال (شاهر) عاجزا عن كتم استنكاره:

- إنه مجرد طفل! ماذا لو كان ابنك؟

- هو ابني يا سيد!

وضرب كتف الصغير الباسم بقوة صائحا بمرح:

- وأنا فخور به!

تأمل وجه الكهل مليا, احتفظ به مع ركام الذكريات العفنة التي لن ينساها ما حيي, كيف سينسى هذا الرجل السعيد وابنه الأسعد؟ كيف؟

تنهد مواصلا المشوار.. حقا إن الحياة مسلية, من قال أنهـــا مملة باعثة على الضجر؟ لابد وأنه شخص غني لم يحاول الترجل من صومعته الذهبية..

يستطيع البقاء في هذا المكان للأبد دون أن يشعر بالسأم, دروس الحياة لا تتوقف, ومهما حاولت الشعور بالتكرار فأنت تعلن الهزيمة في النهاية, لا يزال العالم مملوء بالعجائب التي تستنكر لرؤيتها..

- "علكة يا عم؟ عسلية يا عم؟ ملبس؟"

وضع راحة يده على كتف الصبي البائع وأزاحه برفق جانبا.. تنحى عن دربي يا بني وإلا قتلتك!

لكن البائع بدا مصرا, التصق به كدودة في الشص, طارده بحبة لوز بالعسل صائحا:

- حتى المعلم يعشقها!

قال المعلم! ليس معلم الصبي حتما فقد نطقها بضم الميم, بدا مثقفا اللحظة التي نطق بها الكلمة.. و(شاهر) فكر بهذا كله متسمرا, بفهم التفت, بصمت نقده ثمن الحلوى, فأطلق الصبي لساقيه العنان مبتعدا..

فضّ المغلف البلاستيكي الشفاف متبينا وجود وريقة مهترئة مدسوسة, فتحها بحذر فوجدها مدونة بخط زخرفي جميل وبقلم حبر شفرة أسود اللون, لابد وأنه خط المعلم..

"عد إلى غرفتك وامكث بها حتى أراسلك مجددا.."

- "مطلب سهل!"

طاف الأرجاء دقائق معدودة باحثا عــن مهزلــة جديــدة يضيفها إلى ملف الذكريات الساخرة من الحياة, ثم دار علـى عقبيه راجعا أدراجه..

*****

لم يكن مطلبا سهلا..

لم يصدق أنه صار خاضعا لشخص واحد يأتمر بأمره, صار ينتظر إشارة من شخص ملوث كي يدخل أو يخرج, ولربما كي يأكل ويشرب أو يذهب للحمام فيما بعد!

ثلاثة أيام قضاها داخل الغرفــة, منــصتا إلى المــشاجرات والزعيق المتواصل..

فكر بالخروج, لكن سرعان ما عدل عن الفكرة, الرســالة كانت صريحة الفحوى, المكوث معناه عدم الخروج, والخروج معناه ضياع الهدف..

راودته هلوسات, كان قد أقلع عن التدخين قبل ســنوات بعد إدمان المادة السحرية, أما الآن فقد صار التــدخين هــدفا آخر له, فأقسم أن يبحث عن سيجارة عندما يخرج..

المعلبات التي ابتاعها شارفت على النفاد, والمعلم اللعــين لا يسأل عنه, هل مات؟ و لم لا؟ أليس الفرد المتفرد بالملك والجاه هدف الجميع هنا؟ ألم تكن تلك كلماته بالحرف؟ ماذا لــو أن

أحد أعوانه طبق ذلك المبدأ بحذافيره واغتال المعلم كي يحل محله وهو ها هنا قابع بانتظار رسالة من جثة؟

ثم ان الملك المزعوم مدمن كفيره, ومخدر (R.D.٦) قاتـــل كفيره من صنوف المخدرات, غير مستثنى من منحل الهلاك..

انتابته الكوابيس بشأن ذلك, صار ينام كثيرا لقتل الوقـــت, كوابيسه باتت أكثر سوداوية.. القارب الخشبي المتـــأرجح في عرض بحر قاتمة مياهه يكاد بأن يغرق, الماء كان يتسلل بـــبطء عبر ثقوب دقيقة توطئة لابتلاعه كاملا بصاحبه..

أفاق بذقن نامية وعرق غزير وجوع كافر.. صوت طرقات صاخبة على بابه, ورسالة مررها صاحبها أسفله!

وثب كالمجنون ملتقطا الورقة الجديـــدة, كانـــت داخـــل مظروف أنيق هذه المرة, فضه, طالع ببصر ملهوف ســـطورها المدونة بذات الخط الزخرفي النضيد:

"بوابة الجنة مفتوحة على مصراعيها! تعال حالا لرؤيتي.."

شعر بعرق بارد يهبط ببطء كريه من جبينه حتى بلغ أسفل عنقه, كوّر الرسالة ورماها جانبا, وحرر رتاج الباب فاتحا إياه على مصراعيه قبل ركضه خارجا كالملهوف..

وأثناء هبوطه السلالم اصطدم بشاب هادئ الطبـــاع كمـــا تشي تقاسيمه, يرتدي نظارات طبية سميكة أخذت الكثير مـــن

ملامحه, وقد حمل أكياسا من الفاكهة والمعلبات صاعدا الدرجات بروية كأن الزمن ملك يمينه..

حدث الارتطام العنيف وتبعثر كل شيء أرضا قبل انزلاق الفتى للوراء, تبدت آيات الفزع عليه محاولا التشبث بأي شيء, اختل توازنه, كانت السقطة مؤدية لعواقب وخيمة حتما, لولا اندفاعة قبضة (شاهر) وتشبثها باليد المناشدة..

أوقف جسمه كله, فثبت الشاب بناظريه في حدقتي منقذه قائلا:

حمدا لله! لم يحدث شيء!

رأى شيئا عجبا في حدقتي منقذه, ثم لم يلبث أن اتسع ثغره بلوعة عجيبة..

"(شاهر)؟ أهو أنت؟!

يا الله! ألم تتعرفني يا رجل؟ هذا أنا! (فيصل)! ياه! كم من سنوات.."

تلون وجه (شاهر) لجزء من الثانية بوشاية, فتكشفت معرفته بالشاب, لكنه تجاهله, بل ودفعه بخشونة جانبا وهو يركض لأسفل بسرعة الريح..

وبقي الشاب مسمرا بمكانه والذهول يملأ وجهه..

الساعة الآن العاشرة ليلا..

المعلم الداهية! يستحق سمعته, إذ لم يسلم المادة بعجلة.. لقد كان يسيطر على إدمانه هو الآخر, تماما كشاهر..

وربما لا! الفرق بينهما أن اللعين يمتلك مخزونا سريا من مادة (R.D.٦) بخلافه, لكنه لم يتكالب على تجربة المادة المطورة بل منحه شرف أن يكون كبش الفداء..

كانت المادة الجديدة كسائل رقراق, ذات زرقة شفافة كماء العينين, المادة القديمة كانت ذات صفرة شفافة, مشتقة من البروفين والبلاذون وفطر الأمانيت, ثم يأتي دور المواد السرية كخلطة كنتاكي, تلك الخلطة التي منحت المخدر أسطورته, تركيبة لا يعلم بها غير الله وصانعها العبقري المجنون..

المادة الجديدة خليط بين المخدر وعقار الهلوسة, وهي عبارة عن خلطة مركبات كيماوية من باربيتيورات ومئشدرين والفولانيل وغيرها, بلا مشتقات طبيعية هذه المرة..

المفاجأة هنا – كما ذكر المعلم- أن مادة عضوية مستخرجة من حيوان تدخل في أهم تراكيب مخدر(R.D.٧)! أي أنه المخدر الأول الذي يستخدم مادة مشتقة من حيوان قذر ما, هذه سابقة لأن النبات هو الأساس في أية تركيبة خاصة بمخدر,

و(شاهر) يستعد لتجربة مخدر قد يكون مشتقا من عضو خنزير!

صعدت الفكرة بعصارته فصار على أهبة للقيء, رائحة المخدر قريبة من الكلور, لا بأس, هذا لن يكون أسوأ ما قام به في حياته..

كان قد جهز أوراقا وأقلاما لكتابة تقريره, على رأس الورقة قام بتسجيل اسم المخدر كاملا دون اختصارات:

(Raw Death ٧) وتعني الموت الخام ٧, يشاع أن الحرفين يشيران لتلك التسمية, نعم؟ لا؟ من يدري؟

استطلاع رأي, بحث.. هذا المخدر أفقدني القدرة على الإبصار لذا أنصح بمنع تسويقه حالا! هذا المخدر أصابني بالشلل لذا أنصح بشراء كرسي مدولب قبيل تجربته!

تبسم, توسعت الابتسامة, ضحك, تنهد.. ماذا سيخسر؟ ماذا سيخسر؟

الجزء الثاني

١

في حالة الموت السريري – أو الموت الإكلينيكي- يحـــدث تلف للمراكز الحيوية في المخ، أو "جذع المخ" كما يطلق عليه الأطباء، المركز الخاص بالتنفس هو الأهم..

للمريض عدة إجــراءات في تلـــك الحالـــة, اختبـــارات وفحوصات متعددة لمعرفة ما إذا كانت الوفاة كاملة أم أنها أمر عارض, ويعود بعدها مركز التنفس للعمل مجــددا.. في حالـــة الموت السريري أو الدماغي، يحدث تلف في الدماغ ويتوقـــف عن العمل, لكن يظل القلب والدورة الدموية يعملان بـــشرط استبدال التنفس الطبيعي بالصناعي, وهو ما يبقي المريض الميت سريريا على قيد الحياة لبعض الوقت.. ويتراوح هـــذا الوقـــت الذي يعمل فيه القلب بين أسبوع وأسبوعين علـــى الأكثـــر, يفشل بعدها القلب فشلا وظيفيا ثم يتوقف تماما، وهو ما يعني في هذه الحالة الوفاة التامة للمريض..

*****

القارب الخشبي لا يزال متأرجحا كالمهد في بحر المياه القاتمة, والسماء لا زالت مغطاة بغيوم ضبابية رمادية..

لا زال جالسا في القارب بذات السكينة العجيبة, متمتعـــا بالعزلة بلا أمل في النجاة.. البعد الآخر المجهول, حيث الميـــاه محيطة به من كل جانب..

جسم ضئيل يطفو على سطح الماء يدنو منه, جسم بشري ضئيل له رأس وأطراف صغيرة, قلب سكينته رعبا لا مثيل له..

*****

تطوعت ممرضة بإخباره تلك المعلومات القيمة التي كان يجهلها..

أخبرته أنهم أعلنوا وفاته في تمام الساعة الرابعة فجرا, لكنه خيب توقعاتهم لما اشتعل جهاز راصد القلب بجنون بعد حوالي عشرة دقائق!

عشر دقائق كاملة كان خلالها لحما ميتا مكوما فوق سرير رخيص شراشفه الحكومية بالية!

كانت مشفقة على شبابه وهيئته المبعثرة وحاله التي تكسر الفؤاد والخاطر, وهو بمنأى عن ثرثرتها, يفكر في منجل الموت الذي تحسس أوردة عنقه قبل تغييره رأيه في آخر لحظة معطيا إياه فرصة أخرى!

شده لتلك الفكرة المروعة, فانفجر باكيا وهي ترمقه بشفقة وتجفف له جبينه المتعرق.. كان يرى المعلم واقفا يضحك بمكر وهو يغمز بالعين اليسرى, عين الشيطان! يلوح بإبرة تحوي مادة ذات زرقة شفافة قائلا بتخابث:

- "بوابة الجنة مفتوحة على مصراعيها! تعال حالا لرؤيتي!"

هدأ نوعا, فهمس من بين أسنانه:

- حتما سأفعل!

سألته الممرضة بقلق:

- هل قلت شيئا؟

- أنا جائع!

*****

حضر رجل شرطة كي يسأله عن المادة في دمه, التحليل يقول بأنه ليس مخدر (R.D.٦) كما يعرفونه, شيء آخر أقوى يسري بدمه, شيء مطور, شيء مخيف! لا يعلم, حقا لا يعلم, قد يكون كابوسا, وقد يكون ميتا, لكنه لم يشح بناظريه عن الشرطي الممتلئ الذي سجل أقواله في مفكرة, كان قاسيا في استجوابه فظا في ردوده, وهو أمر طبيعي, إنهم يعاملون المدمن تماما كالمنتحر, كلاهما يستحق الازدراء لاستهتاره بحياته..

وقبل نهوضه من على المقعد قال بخشونة محنكة:

- سنعاود استجوابك!

كي يقودهم للمعلم؟ لا, حتى الشرطة نالت نصيبها من (R.D.٦), أنت يا صاحبي قد تكون نزيها, لكن رؤسائك ليسوا كذلك حتما, لا هم ولا أولادهم!

أسبل جفنيه مقررا النوم, المزيد من النوم, قتل الوقت مهم, يجب قتل المزيد من الوقت كي لا يشعر بشيء.. نم! اقتل! نم! اقتل!

أفاق, الممرضة تناوله طبق حساء الدجاج المقيت, يسألها عن المدة فتخبره بإشفاق أنه على حاله منذ أسبوع! إذن نم! اقتــل! نم! اقتل!

أفاق على معاينة الطبيب, قياس الضغط ودرجة الحــرارة, المبولة جاهزة لعينة جديدة, كم لبثت من الوقت يا دكتــور؟ شهر.. شهر؟!

نم.. اقتل.. نم.. نم!

*****

- "على الطريقة الأمريكية, لدينا خبر جيد وآخر سيء!"

- "إليّ بالسيء.."

- "للأسف أنت لم تتماثل للشفاء, لا استجابة لعلاجنـــا, تلك المادة الجديدة قوية حتما, والمدهش أنها مستخرجة من.."

- "عضو خنزير؟"

- "لا, بروتين الجاموس!"

- "إذن فهذا هو الخبر الجيد!"

- "لا, الخبر الجيد أنهم لن يسحنوك, سيتم نقلــك لمــصح مختص.."

- "مصح مختص؟ من أي نــوع؟ وكيــف سيـــساعدونني هناك؟"

- "أحسبهم الوحيدون القادرين على ذلك الآن, فقد انتهى دورنا هنا.. حظا موفقا يا بني!"

٢

يقع مصح "البرعم الأخضر" على طرف الممر المتخلل "غابة السرخس" كما يطلقون عليها, والتي تحتل جزءا لا بأس به من خلفية بلدة منسية يقال لها "خرم الحنطة", حيث بني في أواخر السبعينات قريبا من "الجبل الأرجواني"..

يتألف المصح من ثلاثين غرفة, و لم يؤمه مرضى كثر في تلك الأيام بسبب بعض الخرافات المروجة بكون المنطقة مسكونة بالعفاريت! فأغلق بعد سنة من افتتاحه وبيع بمبلغ زهيد إلى مليونير مسيحي في الأربعين من عمره..

ومن دون دعاية بدأ أهل الفضول يزورون ذلك المصح رغم أن الرحل لم يدخل عليه تحسينات من أي نوع, فقط يعرجون عليه وكأن هالة من نور تقودهم نحوه! زاعمين أنهم أتوا للبحث في أصل الحكايات المخيفة التي تدور حوله.. كان هذا قبل الحريق الكبير الذي اندلع فيه مع مطلع الثمانينات..

وفي عام ١٩٨٨م أعيد بناء المصح عن طريق الحكومة التي عاودت شراءه من حفيد المليونير الراحل, ثم انتهت الأقاويل المتعلقة بصدده, فلا أحد من العامة يعلم اليوم ما إذا كان موجودا الآن أم لا, فقط الحكومة تعلم أنه مقر لمعالجة مدمني مخدر(R.D.٦) القاتل..

*****

في خريف مكفهر تغمره أوراق الشجر المتساقطة كان وصول (شاهر) للمصح..

بدا المكان صامتا كالضريح, حاويا للأسرار الغامضة التي لا تمه في شيء إن وجدت!

ثمة مزرعة غير مبهجة وإسطبل, المكان محاط بأسوار شاهقة العلو, والدخول والخروج يتم عبر بوابة فولاذية يحرسها رجل راقبه بنظرات غير ودودة بالمرة..

في الداخل صمت في الأروقة, ورأس عملاق لحيوان رنة معلق بالقرب من خزانة اللوبي! بدا مظهره شنيعا, وكأن الزبد الأبيض لازال يلطخ شدقيه الأسودين.. ماذا يصنع في مصح بحق الله؟!

ثمة صورة تحتل جزءا واسعا من الجدار المقابل, وتمثل منظرا رسم بدقة وبراعة للمصح من الخارج ومن زاوية ممتازة..

على طاولة الاستقبال جرس ضئيل كناقوس الفنادق, ضرب الممرض المصاحب زره المعدني براحة يده, فانطلق الرنين بحدة خافتة ذات صوت مألوف, في حين أنزل (شاهر) متاعه أرضا, وطفق يتأمل في كل زاوية وقطعة أثاث بصمت كأن على رأسه الطير..

- "أهلا يا سادة!"

نظرا بآن واحد, فأبصرا ممرضة عبوس ذات ملامح دميمة, لكنها عريضة المنكبين ذات جسد متين البنية كالذكور! ترتدي عوينات بيضاوية صغيرة وتتأملهم بجفنيهـا الـضائقتين مـن فوقهما, بدت ممتلئة لولا الذبول في حنجرتها..

– "أنا المشرفة (وجيهة).."

صوتها رخيم اعتاد إصدار الأوامر..

ولج الممرض بالموضوع بسرعة, فشرح لها أمـر المـريض الجديد وهو يسلمها ملفه..

– مدمن آخر؟ آه من الدنيا التي لا ترحم!

أصدر الرجل صوت طقطقة مردفا بلهجة ذات خطورة:

– المادة في جسمه مختلفة..

نظرت لشاهر بفضول متسائلة:

– أحقا؟

ردّ الشاب بخشونة وقد أدهشته طريقتها بالكلام عنه وكأنـه ولد صغير لطيف:

– وكيف لي أن أعلم؟

– على رسلك أيها الفتى حار الدماء! ما هكـذا تؤخـذ الأمور.. هل لي بمعرفة اسمك؟

– (شاهر)..

– إنه يروق لي كثيرا! ماذا كنت تعمل؟

– كنت رسام إعلانات..

قالها متأملا المكان حوله وكأنما يقيس إمكانية أن يعج بالمرضى.. وفي النهاية مدت المرأة يدها مصافحة الممرض..

– "بإمكانك الرحيل, سنعتني به جيدا.."

لاحت بغتة نظرة قاسية في عيني الرجل الذابلتين, وارتسم تجهم قاس على وجهه وهو يقول لشاهر ببطء:

– ابتعد عن المشاكل, ولا تنس أن الشرطة مهتمة بأمرك..

– حاضر يا والدي!

انسحب الرجل تاركا المرأة تدون شيئا في الملف, ثم اصطحبته في الممر قائلة بعجلة كأن الوقت يداهمها:

– الآن تقابل المديرة, إياك والمشاكسة معها وإلا نلت متاعب جمة..

– أين المرضى؟

– هنا وهناك, ماذا كنت تظن؟

– أنهم لاذوا بالفرار!

– لا أحد منهم يفر, هذا منزلهم الحقيقي!

توقفا أمام الباب في آخر الممر, طرقات.. "ادخل".. دخلا..

كانت المرأة الجالسة وراء المكتب أقل حدة مــن المــشرفة, لكنها ذكرته بالمعلم على نحو ما, جلستها, مكتبها المعتنى بــه, شعرها معقوص وملابسها غامقة, في عينيها حنو يمكن تبينه..

- "سيد..؟ (كاسبار)! (كاسبار هاوزر)!"

وابتسمت متناولة الملف من المشرفة, تصفحته دون تــدقيق هامسة:

- من الآن فصاعدا سيكون هذا اسمك! تماما كالقصة, هل سمعت بها؟

- أجل.. لكن اسمي هو (شاهر) وهو يعجبني..

- وصلتني مكالمة بخصوصك, واحدة من الشرطة والأخرى من طبيبك, أخبرني الأخير أنك أفقت من حالة موت سريري, يجب أن تحمد الله!

- الحمد والشكر له, ما علاقة ذلك باسمي؟

- ما بلغني من معلومات بشان ماضيك ذكرني كثيرا بقصة (كاسبار هاوزر)!

- فقررت تسميتي كما تفعلين مع حيوانك الأليف!

- لا تكن متعنتا يا عزيزي! أتمنى أن نوجد لك البيئة المناسبة كي تتماثل للشفاء.. لكن دعني أسألك سؤالا واحدا.. لمــاذا تعاطيت المخدر المطور؟ ماذا كانت ذريعتك بالمقام الأول؟

تعلق بصره باللوح البرونزي الصغير المواجه له, (باسينت), هذا اسمها إذن.. ثم حدجها بنظرة طويلــة صـــموت, فكـــر بالإعراض عن الرد, لكنه في النهاية أجاب:

– أردت.. أردت حضور حفل عيد ميلادي ورؤية والدي ووالدتي ورفاقي!

– والدك ووالدك؟ لكنك تربيت في ملجأ للأيتام قبل أن..

– قصدت الذين لم أنعم بمقابلتهم قط!

باغتها الصمت وقد تنبهت أخيرا لمقصده, فانشغلت بتدوين بعض النقاط الإضافية.. إحباط.. اكتئاب.. شغف بالهلاوس.. كان يخمن ما تدونه بين صفحات ملفه..

– "بإمكانك رؤية غرفتك الآن.."

– "شكرا يا ماما (تيريزا)!"

– "أستميحك عذرا؟"

– "لا شيء, هذه تسميتي أنا لك فقط!"

اكفهر وجه المشرفة قائلة باحتداد:

– الاحترام!

لكنها ، اقبته بحبور عجيب, ثم وبنبرة ذات وجل تمتمت:

– حظا موفقا هنا يا سيدي..

هكذا خرج برفقة (وجيهة), فاقتادته مسافة لا بـــأس بهـــا شاهد خلالها عبر النوافذ حديقة لا بأس بها..

– "هذه هي غرفتك.."

وهمت بالرحيل, فتساءل متأملا الباب:

– وأين المفتاح؟

– لا مفاتيح, الوجبات الثلاث تقـــدم في قاعـــة الطعـــام, الإفطار في الثامنة, الغداء في الواحدة, العشاء في التاسعة..

وغادرت تاركة إياه يحتمل متاعه ويدلف..

فما إن فعل حتى بوغت بصيحات مرح وهتافات وتصفيق حار و.. ماذا يحدث؟!

أبصر عددا من الوجوه الذكورية والأنثوية, وجوه ترمقـــه بشغف وحماسة وأخرى ببرودة ولا مبالاة, وقد توسط الجميع ممرضة جذابة ذكرته بصوفيا لورين!

طاولة من المفترض أنها تخـــصه تراصـــت فوقهـــا أطبـــاق وكؤوس, بانتظار صب العصير وتقطيع تورتة هائلة الحجم!

وعلى السقف وراء الكل علقت لافتة مـــن القمـــاش دوّن عليها:

"أهلا بالنزيل الجديد!"

وعلى الرغم منه.. ابتسم!

٣

لم تؤثر طفولة (بلجة) التعيسة به كثيرا, أبواه كانا أحمقين, وكثيرا ما تشاجرا أمامه حتى أصيب مرة بإناء في جبهته قذفته والدته على والده لكنها أخطأت التصويب!

ماتا في حادثة سيارة مروعة, وقد قال الشهود أنهم رأوهما يتبادلان الصفعات أثناء قيادة والده سيارته, فلم يتنبه لمصباح الإشارة الآمر بالتوقف, لقد سحقا سحقا بسيارة أخرى!

كان يفرغ من كابوس كي ينتقل لآخر, في الملجأ عاش طفولة غميمة, وفيما بعد عندما كبر تحول إلى مدمن ضار على المخدر المطور, فانقلب الكابوس ثقيل الوطء لحلم وردي, ثم لم يلبث أن تحول إلى شيء لا يوصف بكلمات, صار كالسيد في قصر واقع بمعزل عن البشر, وقد كان هذا يناسبه أكثر..

لم يتذكر (بلجة) اسمه الحقيقي أبدا, وإن ضايقه الاسم الذي حمله كمريض والذي كانت مدام (باسينت) مديرة المصح تناديه به, كانت تسلية المرأة هي إطلاق ما يحلو لها من تسميات على كل مريض يدخل للتعالج من إدمانه المدمر, ولم يفهم معنى اسمه الجديد حتى وثق معرفته بباقي أفراد عائلته الجديدة التعيسة, فتعرف النشيط منهم والجميل والذكي — أو من كانوا كذلك قبل إدمانهم-, ومن بين الأذكياء وجد الأذكى, الفتى المقعد (حلزون), فزاره ذات ليلة مستفسرا عن

معنى اسمه, فأخبره الفتى الذي عانى مرارة شلل الأطفال أنه يعني الفسحة ما بين الحاجبين, وقد كان ذلك حق, فحادث الإنــاء تسبب له بندبة متسعة زادت من تفريق حاجبيه وتباعد المسافة عن بعضهما, فبات منظره مزعجا بالنسبة له وللبعض..

استعان سرا ومرات عدة بأدوات ماكياج اقتنصها من غرفة (ذهب) تلك المريضة المغرورة, مزمعا الخلاص من تلك المشكلة لسر رقد في أعماقه منذ زمن..

في بداية تعارفهما داخل المصح كان (بلحــة) و(ظــلال) يمضيان غالبية الوقت معا, ثم فرقتهما الأيام ومدام (باســينت) عن بعضهما لعدم ارتياحها مخالطة الذكور للإناث, معتبرة ذلك خطيئة لا تغتفر, حتى وإن كانوا مرضــى يواســون بعــضهم البعض..

ولدى حضور الممرضة (أزوريت) وجد (بلحــة) فرصــته سانحة مجددا, فأزوريت لم تكن تتمتع بــذات تعنــت مــدام (باسينت) أو كفاءتها, تاركة للجميع الحبــل علــى الغــارب مكتفية بإطعامهم وإلباسهم وإيوائهم مع تكفلها بالنصح لهم في معظم الأوقات, فكان هذا أكثر من مناسب..

وجد أن مفعول الماكياج لا يدوم طويلا, فكــان يرســم حواجب بقلم الكحل ويضع قليلا من مساحيق التجميل علــى الندبة اللعينة أملا بمواراتها, ثم يهرع للقيا (ظلال) في الحديقــة, حيث تجلس على الأرجوحة منتظرة قيامه بدفعها من الوراء..

ذات مرة قام بأرجحتها قليلا قبـــل أن يوقفهـــا, فهتفـــت معترضة:

– لم توقفت؟

– (ظلال) أنا..

– أنت ماذا؟

– أنا أحبك!

قالها ووجهه متعرق حتى زالت كل المساحيق التي وضـــعها على ندبته القبيحة, فتلفتت بصمت.. لم تخبره أنهم مجرد مرضى في طور النقاهة, ولم تهزأ منه ومن ندبته رغم الإغراء الواقع في نفسها تلكم اللحظات, الحقيقة أن الأمر أغبطها قليلا فقررت أن تتسلى بعواطفه..

هكذا ردّت عليه هامسة بعينين مسبلتين:

– استغرق منك الأمر مدة طويلة.. واأسفاه!

– على ماذا؟

– قلبي ملك لغيرك.. آسفة يا (بلحة)!

ثم فرت من ناظريه مهنئة نفسها على النجاح الساحق الذي حققته, غير آبهة – أو عالمة- أنها صدمته صدمة لم يستشعر لها مثيلا..

جلس مكانها فترة يتأرجح, قبض على الحبلين المتدليين مـــن فرع الشجرة الضخم بقوة, ثم سحب بقبضتيه لأســـفل بقـــوة

وعنف حتى آذاهما وأدماهما بشدة, لكنه لم يأبــه أو يتــأوه.. انحصر تفكيره في سؤال واحد.. من يكون؟ من الوغد؟ من تراه يكون؟

من بعيد أبصر (شاهر) متمددا كعادته على العشب النــدي الأخضر داسا بسنبلة قمح بين شفتيه, فاشتعل حقد كالنار بين ثناياه, وارتفعت عقيرة عقله بالصراخ: "المستجد اللعين! ومــن غيره؟!"

اشتعلت نيران غيرة مدمرة وبصره لا يفارق الفتى الــذي لم يستسغه مذ أتى أول مرة, كان يكرهه, يكره ثقتــه العميــاء بنفسه, يكره هدوءه كأن العالم بأسره لا يعنيــه.. ذات مــرة صعد للسطح, فوجده راقدا على ظهره وقد دسّ بين أســنانه نكاشة متأملا الغيوم في السماء كأنه ينتظر خبرا منها بــسلام روحي!

هكذا وجد (بلحة) خصما, لكن (شاهر) لا يستهان بــه, والعراك معه لن يكون في صالحه, إذن فليجد من ينافس غريمــه قوة وليوغر صدره عليه..

و لم يكن ثمة شخص مناسب بين الشبان, كما أن الجميــع يحبونه ما عدا (داهوت) الأشقر الجميل, و(ثؤلول) الذي ينافسه قبحا, لكنهما لن يحاولا اعتراض سبيله أبدا لجبنهما..

٤

لدى استقبال المصح تلك المريضة الباكية, احتملتها مـــدام (باسينت) إلى غرفتها بعون من (وجيهة), حيث أعطتها حجرا جميلا يماثل الكريستال, فابتهجت الفتاة لمرآه كثيرا, فوعـــدتها المرأة بمنحها إياه إذا توقفت عن البكاء..

فيما بعد, زارت تلك المريضة بعد تحسن طفيف (حلـــزون) أمين مكتبة المصح كي تسأله عن الحجـــر, فقطـــب حاجبيـــه معتصرا ذاكرته قبل أن يجيبها:

– إنه التبريس, يقال أنه يشفي من الاستسقاء, ويقال أن من يمتلكه يصير خبيرا بالفلك!

ثم تذكر أمرا آخر سيثير اهتمامها مستقبلا:

– يقال أيضا أنه إذا ما رصع به خاتم, جعل حامله محبوبـــا من الشخص الراغب في نيل حبه!

عندئذ علمت (تبريس) معنى اسمها الذي استساغته, فقـــد وجدت له رنة موسيقية جذبتها, واحتملت الحجر معها دائما وأبدا كما لو كان مصدر قوة غامضة توشك على امتلاكهـــا يوما..

زفاف (أزوريت) من الطبيب الذي طلب يدها قبل شـــهر فحسب قد دنا..

أثناء تحضير فستان الزفاف جلست في غرفة (ناردين) ومعها (حرير) و(ذهب) و(ظلال) و(غصون), وحتى (قبرة) الشرهة تخلت عن باب الثلاجة كي ترى ثوب الزفاف الذي بهرها كثيرا..

كانت (أزوريت) تعاملهن كصديقات قديمات, فترفل في الثوب الجميل أمامهن, وتدور حول نفسها كالفراشة وهن مصفقات ضاحكات, تخبرهن أن يوم زفاف الأنثى يوم مخلد في ذاكرتها, وجميعهن سيسعين لجعل ذلك اليوم هو الأجمل في حياتهن, فتحرك بحديثها مخيلاتهن..

بجرأتها ووقاحتها المعهودين تطلب منها (ذهب) إخبارهن عن ليلة الزفاف وما يقع فيها بين الذكر والأنثى, فترتسم حمرة الخجل على وجوههن جميعا عدا (قبرة) البلهاء التي تقول ببراءة:

– وماذا يحدث في ليلة الزفاف هذه؟

فيجيء الإنقاذ عن طريق (ناردين), تدلف بلطف حاملة علبة استكمال النواقص لفستان الزفاف فهي خياطة بارعة, فتطلب (أزوريت) منهن جميعا وبلطف الخروج, فينفذن دون مشكلة, وتصنع (ذهب) المثل بضغينة لم تخفها يوما في الحديث والنظرات اتجاه (ناردين)!

أما (تبريس) فكم تمنت المكوث أكثر والمشاهدة, لكنها لم تجرؤ يوما على طلب السماح لها بالبقاء, فتهرع إلى غرفتها

وتبتدئ طقوسها المعتادة, تصنع تمائم من الخيــوط والــورق وتتمتم بكلمات غير مفهومة, خاطة بقلم تلوين أحمــر دوائــر لولبية على تمائمها!

كانت تحتفظ بشيء من كل ما تمارسه في ذاكرتها, طقوس نبأتها أن وسائلها ستعينها على كشف الحجــاب عــن اســم حبيبها, وتمارس أفاعيل الساحرات تلك كلها ويــدها قابــضة على حجرها الأثير المسماة باسمه..

دأبت (تبريس) على زيارة (حلزون) وهو جالس على طاولة والكتب والمراجع متراصة من حولــه كقطــارات, فأخــذت مشورته في مطالعة بعض كتب السحر والشعوذة, وكان قد قرأ أكثرها قبل أن يجدها تهرف بهراء لا نفع منه, لكنــه ســاعدها بحكم خبرته منتقيا لها عددا لا بأس به من الكتب المتحدثة عن شروط السحر ومخاواة العفاريت, دون أن يفتهم سبب تحمسها الشديد لتلك الترهات.. وتحولت غرفتها الجديدة داخل المصح إلى غرفة غجرية من قارئات البخت, حتى أن الممرضة الدميمة (وجيهة) كانت تخاف كثيرا الدنو من غرفة المراهقة المجنونــة, وكثيرا ما زارت مدام (باسينت) في مكتبها كي تنقــل لهــا – بوجه ممتقع– أن مشعوذة شيطانية تتلو السريانية لــيلا تقطــن معهم, فكانت (باسينت) تضحك وتــسخر مــن تخاريفهــا الممتعة..

وذات ليلة خرجت (وجيهة) من حجرتها واضعة شالا ثقيلا على كتفيها, فالبرودة كانت غير طبيعية, كما أنها سمعت صوتا مريبا آتيا من قبل المطبخ..

هناك, وجدت هرا أسود يحاول فتح الثلاجة, فتهاوى قلبها بين ضلوعها, ومست ثغرها الجاف بأطراف أناملها هامسة كالمأخوذة:

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! لابد وأن المدمنة اللعينة قد خاوت جنيا!

ولدى بلوغها السابعة والعشرين من العمر, دأبت (تبريس) على الخروج في جولات ليلية في ممرات المصح بقدمين حافيتين وعباءة سوداء كرهبان معابد القرابين, حاملة شمعة ومتلفظة برقيات عجيبة, وفي إحدى جولاتها الليلية قابلت (صفير) المولع باللعب يدور بحيرة التائه كما لو كان فاقدا لشيء هام, فقالت له عبارة واحدة أراحته فيما بعد كثيرا وإن لم يفهم كيفية معرفتها بموضوعه:

– "ستجد (صفرد)!"

وفي ليلة أخرى قابلت (راهب), وقد وجدته مرتديا خوذة بمصباح ويعكف على جرجرة جهاز عجيب الشكل, فقالت له ساخرة:

- أنت بكائناتك الفضائية وأنا بعفاريتي, ولنــر مــن منــا سينجح في الاستيلاء على القصر!

كانت كديدن المرضى الذين أطلقوا علــى المــصح اســم "القصر" لسبب ما يجهلونه هم أنفسهم..

طبعا أثارت ذعره كثيرا, حتى أنه استيقظ صــبيحة اليــوم التالي معلنا للجميع أن (تبريس) كائن فضائي آخر نيتــه غــير سليمة اتجاه أبناء الأرض!

استمتعت كثيرا بالخوف الذي تفشى بينهم اتجاهها كلمــا مرت بأحدهم, وصارت تحمل الازدراء اتجاه الجميع حتى أنهــا صارت تتناول وجباتها وتقضي جل وقتها في غرفتها بين التمائم وممارسات الشعوذة, وتدريجيا تحولت لانطوائية, كان هذا قبل أن يتحول الخوف منها إلى اهتمام بها!

وكان أول الزائرين هو(بلجة), إذ أراد عونها لجعل (ظلال) تحبه, فأعطته تميمة جلدية أمرته ألا يترعها عن عنقه أبدا, كما أمرته ألا يفتحها ليرى ما بداخلها وإلا أصيب باللعنة!

رضخ للأمر, لكنه عندما استوثق من عدم جدوى التميمــة فتحها, فأبصر بداخلها ذيل عقرب!

زارتها (ضارية) أيضا طالبة منها تميمة تعجل بشفاء صديقتها (لؤلؤة) الأثيرة إلى قلبها والتي ترعاها بأمومة, فمنحتها (تبريس)

ما طلبت, ولدى فشل تلكم التميمة أيضا زارها (ضارية) كي تهزأ منها ومن عفاريتها, فحذرتها (تبريس) من فعل ذلـــك وإلا حلت عليها لعنة لن تزول عنها إلى أبد الآبدين!

زارها (ثؤلول) أيضا باحثا عن حل لمـــصيبته, و(زغـــدة) للخلاص من كوابيسها المرعبة, حتى (قبرة) البدينـــة الأكـــول زارتها لإيجاد وسيلة تلج بها نادي "الآنسات الحافيات"!

لكن أعجب زيارة حدثت هي زيـــارة (أزوريـــت) لهـــا شخصيا, وقد جالستها الممرضة باحترام ورهبة رغـــم فـــارق السن بينهما, فقد كانت (أزوريت) مؤمنة تماما بقوة الـــسحر والعفاريت..

سألتها (تبريس) عن المشكلة, فانتحبت (أزوريت) قليلا قبل أن تهمس من خلال دموعها:

– زوجي يريد طفلا من صلبه!

أثارت الجملة قلقا مبهما في نفس (تبريس), فقـــد كانـــت تلك بادرة غير مريحة, في حين أضـــافت (أزوريـــت) مخفيـــة ملامحها بكفيها:

– كما أنه يغار!

– ممن؟

– من.. من (شاهر)!

ذهلت (تبريس) حتى اتسع بصرها, وبنبرة الدهشة هتفت:

– (شاهر)؟ لكنه..

– أعلم هذا! لكن.. تريدين الصدق؟ أحيانا تراودني أفكار مشينة بشأنه!

– أنت؟!

– سامحيني! الأمر أكبر من مقدرتي على الاحتمال أكثـــر, كان يجب أن أسر بالأمر لأحد قبل أن أصاب بـــالجنون.. أراه مؤخرا في أحلام شائنة ولا أعرف السبب!

– إن (شاهر) بمقام ولدك الآن يا أماه!!

– أعلم هذا! أعلم هذا!

ثم داهمتها نوبة نشيج منحت الفتاة فرصة للتفكر بهذا كله, كانت فكرة الإنجاب مخيفة, فهي تعني أن ينال الطفـــل كـــل اهتمام ويفقد المرضى امتيازات وجودهـــا المتعـــددة, حتمـــا سيطلب منها زوجها ترك العمل!

لكن هذا! هذا الحديث الرهيب الذي لا يخطر ببال عفريت من عفاريتها حتى!

وعدتها خيرا قبل تفرقهما, وفكرت (تبريس) مطولا في الأمر حتى أعياها التفكير.. لكنها لم تلبث أن اتخذت قرارا ذات ليلة, فمصلحة الجماعة تفوق مصلحة الأفراد.. هكذا شحذت جميع التمائم ورقيات السحر لجعل ممرضتهم المحبوبة عقيمة!

٥

في غرفته بالمصح, وأمام درج احتفظ داخله بخصوصياته من أيام المترل, استخرج (ثولول) سكينا صغيرة ماضية رفعها عاليا كي يتأمل ملامحه على نصلها..

تذكر ضحكة مدام (باسينت) لما وقع بصرها على وجهه المليء بالثآليل القبيحة, وبمعايرة قاسية ألصقته اسما لطالما تهكم به أكثر المرضى عليه..

والذي لم يدركه أحد منهم أنه كرههم أجمعين, ولدى ولوجه غرفته الجديدة وضع ستارة على المرآة العريضة هامسا بحنق:

– هذه المرأة تسخر مني!

في المصح تقلبت نفسيته أكثر, لقي اشمئزازا من الممرضة (وحيهة), حتى أنها كانت تضع له الطعام وأنفها يتعد عن وجهه كم لو كانت تخشى التقاط عدوى منه, وفي مرة تمشى في الحديقة, فسمع صوت (هدهد) الأحش يهتف به:

– لم لا تختبئ في غرفتك أيها الحيوان القبيح؟ إنك تؤذي الناظر إليك!

فرمقه بنظرة كراهية جمة, وهرع إلى غرفته كي يمر بأزوريت التي تبسمت لدى رؤيته, فنادته بحنو:

– إلى أين يا بطل؟

لكنه تجاهلها مواصلا الركض, ظل صوتها يطـــارده حـــتى بح..

وفي غرفته أوصد على نفسه الباب لاهثا قبل قولـــه بنــبرة مخنوقة والعبرات محتشدة في مقلتيه:

– المرأة اللعينة تسخر مني!

كانت ثآليله معاناة ما بعدها معاناة, لكنه لم يـــبح بوهنـــه لأحد, حتى أن (أزوريت) عرضت عليه ذات مرة أخذه لطبيب متمكن كي يتخلص منها فرفض بإباء وأعماقه ملأى بالتحسر على رفضه المتسرع..

كان يكره الشفقة والاحتقار معا, أراد عيونا طبيعية, لـــذا قضى جل وقته في غرفته, وإذا اجتمع مع أحدهم اختار فئـــة معينة لا تزدريه, مثل (ناردين) اللطيفة و(حلزون) الغير مكترث إلا بكتبه..

وعندما يمر بشاهر من دون قصد, يسمع صوتا هادئا يناديه بقوله:

– كيف حالك؟

كيف حالك! كيف حالك! بلا (ثؤلول)! حتى (نـــاردين) و(حلزون) و(أزوريت) ينادونه بثؤلول بغير نية سيئة, فهـــم لا

يعرفونه باسم غير هذا الاسم المقيت, لكن (شاهر) كان الوحيد الذي تعامل معه بالاحترام المطلوب..

ورغم هذا شعر (ثؤلول) بكراهية عجيبة اتجاهه, ففسر احترامه ذاك على أنه سخرية مبطنة بمكر, أحيانا يطلب (شاهر) عونه في حمل الأغراض التي ابتاعتها (وجيهة) للمطبخ فيرفض, أراد سماع الفتى يصرخ ويشتم ويعايره بثآليله كسواه, أراد الانتشاء بالظلم الذي يشعر به.. جميعكم أوغاد تعايرونني وكأنكم الكوامل بذاتها, وحتى أنت يا من تتظاهر بالطيبة والبساطة معي! كلكم حفنة من الأفاقين!

وذات مرة طلب (شاهر) منه عونه في الإسطبل, فرفض (ثؤلول) صارخا باحتداد:

– لست عبدا لك!

فاكتفى (شاهر) بهز رأسه ومباشرة عمله دون تفوهه بحرف واحد منغص..

ثم وقعت الطامة عندما أصاب أعذب داء مشاعره وفؤاده, فقد تعلق قلبه بالفتاة (زغدة), ولم يدر أنه بذلك قد سطر التعاسة بأسوأ معانيها في حياته..

لم يمتلك (ثؤلول) مواهب خاصة, لا بالحب ولا بغيره, لذا احتمل وردة حمراء وبطريقة مبتذلة قدمها لزغدة عندما كانت مستغرقة في تأملاتها الخاصة في الحديقة..

لكنه رفضت هديته بصرخة, وتراجعت للوراء صائحة بهيجان وذعر:

– وكأن هذا ما ينقصني, "البعبع" يخطب ودي!

آذت كلمة "البعبع" تلك مشاعره أكثر من اسمه, وفي غرفته وقف متجردا من ثيابه كلها, فوجد الثآليل في كل بقعة من جسمه, حتى في المواضع الحساسة, فغمغم كالبلهاء وجسده القبيح آخذ بالترنح:

– هل هذا أنا؟ من أنا؟ لماذا أنا؟ ماذا أنا؟

ثم لهثه بحرقة حتى سمع طرقات على بابه, وكان الطارق (أزوريت) بذاتها تسأله برقة عما أصابه, أراد الصراخ ونعتها بالباغية وحملها على الرحيل, لكنه تكور على نفسه كالقط المبتل, وبضآلة غمغم:

– لا شيء يا أماه, أشعر بالنعاس لا أكثر..

– إذن افتح الباب ودعني أقس لك حرارتك..

– لا داعي لهذا كله, أنام وأستفيق, وعندئذ أصبح كالرهوان..

– إذن تصبح على خير يا عزيزي..

وترحل تاركة إياه يكرر عبارتها مرارا وتكرارا بتهكم مشمئز..

خطر له ذات مرة الاستعانة بتبريس وعفاريتها, فزارها عند منتصف الليل بخطوات حثيثة وأنفاس متلاحقة, فقد كان حقا يهابها..

استقبلته باسمة باستهزاء قائلة:

- ماذا؟ تريد حلا لثآليلك؟

- أريد حلا لقلبي!

استرعى الأمر اهتمامها, فدمدمت:

- هكذا.. ومن تعيسة الحظ؟

تجاهل كلامها قائلا بتصميم:

- (زغدة)؟

- (زغدة) الرعديدة؟ ألم تجد إلا الفتاة التي تخشى ظلـــها؟ إنس الموضوع أفضل..

- أبدا!

- أوه! يا لها من شجاعة! لكنك ستنسى, حتما ستفعل..

- لماذا؟ لماذا؟

- لأن عفريتا أعرفه ويعرفني قد تعلق بها, ولن يتركها أبـــدا حتى لو اضطر إلى ذبح منافسيه على قلبها!

هنا فقط تبدى جبنه وهو يهب واقفا ويتراجـــع مرتعـــدا, خارجا من غرفتها مذعورا وصوت ضحكها الشامت يطـــارده كأشنع كابوس!

وفي حجرته تجرد من ثيابه كالعادة, ووقف متأملا ثآليله في المرآة التي أزال الستارة عنها صائحا:

— يا حقراء!! يا أنجاس!!

مخاطبا ثآليل الشبح المشوه الذي يناظره كل ليلة تقريبا..

ثم جلس على مقعد أمام طاولته, مستخرجا مـــن الـــدرج سكينه الضئيلة الحادة, فتمعن بها محدقا بتقاسيم وجهه المنفـــرة, وبنبرة حقد همس ممررا إبهامه على الحد حتى أدماه:

— الليلة ينتهي كل شيء.. كل شيء!

وبرعونة جنونية قام بتمزيق ثآليله كلها شر تمزيق! ثم خرج بتلك الهيئة المروعة وهو يصرخ, ولحسن الحـــظ أن (وجيهـــة) كانت أول من رآه, فاستنجدت بمدام (باســـينت) والمرضـــى مذعورة..

قام (شاهر) بلف بطانية عليه, وبسرية تامة وبعـــون مـــن (هدهد) تم نقله إلى غرفة من غرف المصح المتعددة ريثما تهرع (وجيهة) لإخبار (باسينت)..

وحضر طبيب مختص بعد مرور ساعة كاملة ومعه ممرضته, فنظفا جروحه كلها بالمطهرات, ثم قامت الممرضة بتضميد الفوضى التي أحدثها بأناة هامسة بعبارات مشجعة:

- أنت فتى شجاع, ما اسمك؟

ردّ ساخرا:

- (ثؤلول)!

لكن وجهها لم يوح بشيء, وواصلت عملها حتى أتمته, ثم رحلت هي والطبيب, لكنها لم ترحل عن بال الفتى المتضرر نفسيا وجسديا..

لأيام ظل يحلم بها, كانت امرأة تماثل (أزوريت) عمرا, قصيرة القامة نوعا, ذات شعر أسود قصير كالباروكة, ممتلئة قليلا, لكن أنوثتها الظاهرة جذبته بشدة..

أراد معرفة اسمها, وتحايل مرة على (أزوريت) التي أتته بصينية الطعام كي تعاود الممرضة زيارته لتفقد جروحه, فوعدته (أزوريت) التي لم تفهم مقصده الحقيقي خيرا, وخابرت زوجها بالعمل كي يرسل الممرضة, لكنه رفض قائلا ألا داعي لحضورها لان الجروح متماثلة للشفاء..

صارت (زغدة) أثرا بعيدا من الماضي, فقد صار وله (ثؤلول) الأول والأخير بقديسات الرحمة اللواتي يهمسن بالشفاء في آذان المعذبين من المرضى, وتحول إلى مريض سريري منعزل, حاله كحال (لؤلؤة) المسكينة..

٦

(جروح) اسم يناسب فتاة, ورغم ذلك لم يكن هذا اسمها الحقيقي.. فقد لاحظت مدام (باسينت) ندبات كثيرة من أداة حادة في راحتيها, وعندما سألتها عمن تسبب لها بتلك الجروح القديمة أجابتها:

– العقاب!

كانت (جروح) تحتفظ بشفرة حلاقة في جيبها, ذات الشفرة التي استخدمتها والدتها الراحلة كلما أخطأت في شيء, وقد كانت أخطائها عبارة عن هفوات لا تذكر, يمكن لأي صغيرة ارتكابها, إلا أن والدتها كانت تملك رأيا آخر..

– "افتحي راحة يدك!"

والسبب – مثلا- تركها الجزر المطبوخ في الطبق لأنها لا تطيقه, ثم تقبض الأم رسغ ابنتها بثبات, وتمرر الشفرة الحادة ببطء على يدها البضة تاركة لها ندبة جديدة من ندبات الهوان والألم.. ثم صارت (جروح) تعاقب نفسها على ما تعتبره غلطة بذات طريقة والدتها, لذا امتلأت يداها ندوبا قبيحة!

لم تتغير (جروح) أثناء تجربة الإدمان وبعدها, ظلت محتفظة بالشفرة معاهدة نفسها ألا تقع في الخطأ احتراما لذكرى والدتها المعتوهة! وباستثناء تلك العادة الماسوشية, تبدت (جروح) فتاة

جميلة تعنى بشعرها وثيابها ونظافتها, وبعينين نجلاوين كانـــت تتفقد الفتية بولع سري لإيجاد من يناسبها منهم أكثـــر, لـــيس كحبيب وإنما كصديق مخلص مقرب..

كانت مشكلة الفتاة أنها صامتة أكثر الوقت كالبكم, نادرا ما تنطق, فإذا نطقت واكتشفت أن ما قالته بدا معيبا أو غـــير مفهوم سارعت بمعاقبة نفسها بشفرة الحلاقة!

كانت تستأنس بالحديقة وخضرة المزرعة, وأكثر ما أحبتـــه لدرجة الوله حصان في إسطبل المزرعة, وقد كان فحلا جمـــيلا يدعونه عداء الصحراء, جواد عربي أصيل بني, ذا حوافر قويـــة وقوائم بيضاء اللون.. صارت تستيقظ فجرا كي تلق التحيـــة على العداء, وتطعمه قبل قيام (شاهر) أو (هدهـــد) بـــذلك, وتوطدت العلاقة بينها وبين الجواد الجميل, فصارت تقضي جل وقتها يوميا معه, تطعمه مكعبات السكر وتروي له حكايـــات عن ذكريات كئيبة, كما أنها دأبت على تنظيف آثار ضـــربات سوط (داهوت) الآلمة على ردفيه كلما امتطاه بقطـــن طـــبي ومطهر للجروح, وزاد ذلك من معاناتها وعدد الندبات علـــى راحتيها..

ذات مرة تصادف وجود (سرعوب) في الإسطبل, وجدتـــه يداعب ظهر حصانها العزيز, فتنمر وجههـــا قلـــيلا وأمرتـــه بالابتعاد عنه! قرأت دهشة في سحنته, وبترفق همس ويده تربت عنق الحصان:

– لكنه يحب هذا!

– وما أدراك؟

– هو من أخبرني!

– إحمل ترهاتك بعيدا عن حصاني!

دهش أكثر لتعبير التملك الذي استخدمته, لكنه كان من المسالمين, فابتعد وخرج دون أن يناقش, في حين دنت هي من عداء الصحراء هامسة والدمع مترقرق في عينيها:

– أنا آسفة!

و لم تحدد أسفها على ماذا بالضبط.. على تأخرها عليه, أم على ترك الفتى يداعبه! المهم أنها وجدتها غلطة لا تغتفر, وفي غرفتها في تلك الليلة رسمت خطا دمويا جديدا على راحتها اليسرى!

في الصباح الباكر يستيقظ الجميع لتناول طعام الإفطار, بعدها تبدأ حصص التعليم, فقد اقترحت (أزوريت) إحضار أفضل المدرسين لهم لتعليمهم كسائر البشر, ومن بينهم شاب لطيف يدرس الرياضيات.. كانت القاعدة الأولى والغامضة لدى (باسينت) ألا أسماء! يمكن للمدرس أو الطبيب معرفة اسم تلميذه أو مريضه, أما العكس فمرفوض, كأن المرأة تفضل تقوقعهم وعدم مخالطتهم باقي البشر..

بطبيعة الحال كان لابد لعدد منهم أن يكونـــوا ضــعافا في الرياضيات, ومن بينهم (جروح) التي كانت تركز في حـــصة أستاذها على وسامته وملامحه الرقيقة الهادئة, كان شابا متبسطا يهوى استخدام الحكايات في حل المسائل المستعـــصية, كـــان بارعا لكنها لم تكترث للدروس كلها..

أما كارثة الكوارث فتمثلت في أسئلته لها حـــول المـــسائل والمعادلات, كانت تخطيء دائما في الأجوبة معه ومـــع بقيـــة الأساتذة في سائر المواد, لكن الخطأ مع أستاذها المفضل معنـــاه طرح ندبة جديدة ومؤلمة على إحدى يـــديها.. لم تقـــصر في زياراتها اليومية للعداء, فكانت تجلب له قطع السكر وتربـــت على ظهره, وتقص عليه ما دار بينها وبين أستاذ الرياضـــيات, وتظل بالساعات تثرثر عن وسامته ودماثة أخلاقه, وفي النهاية قبل أن ترحل تداعب أذن الحصان هامسة بدلال:

– إنه يذكرني بك!

لم تكن علاقة (جروح) بأزوريت طيبة, كانت تطلق عليها "السيدة الزجاجية" لأنها بدت مجرد امرأة تافهة لا تهمها سوى سعادتها, أما تعلقها بهم فهي مجرد مظاهر باردة وصورة مزيفـــة للظهور بمظهر المحسنة.. لكنها أظهرت إعجابا خفيا بالمـــشرفة (وجيهة), كانت تحترم تعبها في الاعتناء بالمدمنين رغم قسوتها وصرامتها.. كانت تحترم المرأة المرهقة من كثرة العمل, وتمقت المدعية المكتفية بالعبارات الرقيقة كأيـــة ســـيدة أرســـتقراطية

أخرى.. لذا عندما دعتها (أزوريت) للانضمام إلى شقيقاتها أو رفيقاتها – كلاهما سواء- في أمور التدبير المترلي من خياطة وصنع قوالب الحلوى أعرضت وبشدة, كانت المزرعة قرة عينها, والعداء اهتمامها الخالص بعد مدرس الرياضيات..

وفي اليوم الذي حضر به رجل بدين منكوش الشعر زاعما أنه مدرس الرياضيات الجديد ثارت, ورغم أن (وجيهة) أخبرتها أن الشاب لم يعد بمقدوره المجيء لانشغاله بالتحضير للسفر لم تصدقها, بل ونعتتها بالكاذبة, فعمدت إلى صفعها من فرط الغضب والانفعال, فهرعت إلى غرفتها منتحبة كالطفلة الغريرة, لكنها لم تعاقب نفسها بالشفرة لحسن الحظ لأنها لم تعتبر ما اقترفته غلطة..

وعند منتصف الليل خرجت حافية قاصدة الإسطبل, فجفلت عندما وجدت (سرعوب) جالسا أمام عداء الصحراء دون أن يمسه.. كان الحصان الجميل معتلا كما يبدو, فأسرعت تتفحصه جزعة قبل تلفتها إلى الفتى الصامت صارخة في وجهه بهيجان:

– ماذا صنعت له؟

– ليس أنا!

– ماذا تعني؟

نهض ببطء, وقبل مغادرته ألقى بقنبلة صادمة:

– إنه يشعر بالغيرة فحسب!

٧

إذا كانت المقولة المأثورة هي "مولود وبفمه ملعقـــة مـــن ذهب", فإن تلك المتعلقة بحلزون: "مولود وبفمه كتاب"!

فتى نجيب لطيف, ربما الوحيد الذي أحبه الكل دون ضغائن أو تهكم – إلا من ناحية الاسم فقط–, قصده الكل أول مـــا قصدوا لمعرفة معاني ألقابهم المبهمة التي صارت أسماؤهم الأزلية فيما بعد..

من أين أتى (حلزون) بثقافته؟ كان ذكيا مثقفـــا مـــذ ولج المصح بشلله المحزن ومقعده البدائي المدولب, وأظهر نجابـــة في كل شيء, وكل سؤال يملك إجابته..

كانت مدام (باسينت) تحبه أيضا وتعامله بلطف, وكثيرا ما كانت تجالسه لأحاديثه الشائقة التي تنسيها هموم إدارة المصح, وهو ما لم تصنعه البتة مع مريض آخر لأن (حلزون) اســـتثناء هام, فهو لم يختر الإدمان بل دفع إلى هوته دفعا, والده حقنـــه بالمخدر على أنه دواء فصار ابن أبيه في عادة الإدمان اللعينة!

لذا كانت متعاطفة معه ومعجبة بمعلوماته الغزيرة.. يحـــدثها عن الحضارات المختلفة والبلدان الجميلـــة, فترمقـــه بنظـــرات مازجة بين الاندهاش والاستحسان, فهو يتكلم عن "اللـــوفر" وكأنه زاره, وعن مقابر الفراعنة وكأنه ولجها, وعن البحيرات الأوروبية الخلابة كأنه جلس على ضفافها يوما..

من ذكرياته التي لم ولن ينسها ما حيي أن مفصلا في دولاب مقعده القديم قد علق, فصار بحاجة إلى بذل مجهود لجرجرته, وتصادف أن كان (شاهر) مارا بالمكان مصادفة, وبنظرة واحدة تفهم الأمر, فتركه وذهب لجلب زيت التشحيم من المطبخ..

أثناء تشحيم المفصل العالق تبادلا حديثا مطولا ومشوقا, حادثه (حلزون) عن "اللوفر" فكلمه (شاهر) عن "الموناليزا", قصّ عليه عن مقابر الفراعنة فعدد له أسمائهم وانجازاتهم عبر التاريخ, حكى له عن جمال البحيرات الأوروبية, فذكر له أسمائها واحدة تلو الأخرى!

وعندما تركه محييا بيد مرفوعة, صنع (حلزون) المثل هامسا بنبرة متهدجة:

– أخيرا وجدت "الفارس"!

عبارة غريبة! أما مقصده منها فسيأتي فيما بعد..

لم يسعد (حلزون) كثيرا في المصح, صحيح أن الطعام متوفر, والملابس تنبعث منها رائحة صابون الغسيل..

لكنهم كفوا عن زيارته للاستزادة من معلوماته القيمة, وصاروا أكثر انشغالا, فأصيب بخيبة أمل لم يظهرها, ولكن سرعان ما تلاشت عندما عكف على تصفح الكتب في مكتبة المصح العامة ..

صعق (حلزون) وبفرح لمرأى الكتب المتنوعة والكثيرة داخل مكتبة هائلة الحجم, فتحول إلى أمينها بالمعنى الحرفي للكلمة, حيث بات فيها أغلب الأوقات, بل واتخذ منها حجرة للنوم رغم سيل الاعتراضات المنهمر من (وجيهة)..

طالع بنهم الجاحظ كل الكتب وبزمن قياسي أيضا, وأعاد ترتيب المكتبة بمساعدة (شاهر) الذي ظل يلازمه كل يوم تقريبا, يتحدثان عن الروايات وكتب الجغرافيا والعلوم من شتى الأنواع, كان ذكاء (شاهر) عجيبا يدنو من العبقرية, لكن مظهره يوحي بشاب غير مبال للحياة, تعلق به (حلزون) أكثر عن ذي قبل, كما أنه الوحيد الذي يعلم سره!

ففي ليلة من الليالي كاشفه (شاهر) بموضوع صغير شيق, إنه واقع بالحب حتى النخاع منذ زمن, ولما سأله بمكر عن سعيدة الحظ ظل (شاهر) صامتا باسما..

كانت (ناردين) هي الألطف والأجمل من بين كل الفتيات في نظره, لذا وجد أنها تصلح حقا لصديقه الهادئ, إنهما يشكلان ثنائيا ممتازا, ولم يخبر أحدا بالأمر..

لم يحدث أن رآهما معا وهذا ما جعله محتارا, ولما سأل (شاهر) عن السبب أجابه:

– إنها فتاة عذبة وأنا أهابها نوعا!

– معقولة؟ أنت تهاب فتاة؟

– و لم لا؟ إنهن الغموض الآسر بعينه!

وعندما استأذن للذهاب إلى الإسطبل كي يعاون (هدهـــد) في الإسطبل, تهامس (حلزون) بينه وبين نفسه بشغف:

– لابد وأنه "الفارس"! ومن غيره يكون؟!

إذن.. ما حكاية الفارس؟

لدى (حلزون) سر يثقل الكاهل, سر يمكن اعتباره مخيفـــا, فقد نشأ في منزل بمخاوف معتمرة في نفسه, ظل يحملها حـــتى انتقاله للمصح.. كانت تسلية مدام (باسينت) الأخـــرى بعـــد إطلاق الأسماء الغريبة عليهم هي سرد الحكايات المخيفة, وهي اللحظات الوحيدة التي تجد بها المرضى وقد تجمعوا في ســـهرة ليلية – إذ لا تلفاز هنالك لأنه قادر على توليد عنف لـــديهم وتصرفات أخرى غير محسوبة النتائج- بانتظار سماع ما سيسرد الليلة كصغار الكشافة.. أما الحكاية التي نالت إعجابهم وبشدة – عدا (زغدة) و(حلزون)- فقد كانت حكاية عن أســـطورة صينية قديمة تدعى: "قائد الصفصافة"!

تقول مدام (باسينت) بنبرة ذات رهبة متأملة عيون المرضى المتسعة وشفاههم المنفرجة قليلا وهي تطالع كتابا قديما بعيـــنين ضائقتين من فوق عوينات طبية أضيق:

– عاش في قديم الزمان فارس يدعى (لي ســـن ايـــن), أراد شراء منزل كي يعيش فيه مستقرا, فقد قرر الزواج أخيرا بعـــد

حياة حافلة بالمغامرات المتهورة مع تابعه الشاب الذي رافقه في كل رحلاته ومغامراته الشائقة..

بحث (لي) عن منزل الأحلام طويلا ولكن دون جدوى, فهذا المنزل صغير, وذاك غال, وثالث موقعه غير مناسب, ورابع أكبر من اللازم..

شعر (لي) باليأس بعد عناء طول بحث, لكنه وجد منزله المنشود في أحد الأيام..

كان منزلا مناسب الحجم, في باحته حديقة مناسبة لزراعة زهور النرجس التي يفضلها (لي), كما أن منظر الجبال ذات القمم المثلجة من خلف المنزل كان خلابا..

قال (لي) منبهرا لتابعه الشاب (كوان):

– لقد وجدت المنزل الذي أحلم به أخيرا!

كان مالك المنزل عجوزا متغضن الوجه جامد التعابير, وقد قال للشاري الجديد المتحمس بنبرة باردة وهو يشير باتجاه باب المنزل القديم الذي حمل نقوشا قديمة:

– يجب أن أحذرك من شراء هذا المنزل المشئوم!

تملكت (لي) دهشة عارمة , فتساءل:

– ماذا تقصد يا جدي؟

– منزلي هذا هو مأوى للأشباح المسماة "كوي"!

– أشباح؟ في هذا المنزل؟!

– أشباح تحب الأذى, أصحابها ماتوا أشنع الميتات..

إن "كوي" تنشد أذية الناس علها تجد منهم من يحل محلـــها في الجحيم! لكنها لا تستطيع السيطرة على الـــذين يمتلكـــون قلوب التنانين الشجاعة..

فهل أنت تنين شجاع يا سيد (لي)؟

قالها متهكما, لكنه فوجئ بالرجل يقول وهو يشد قبـــضة يده:

– أنا ماهو أكثر من ذلك!

رمقه العجوز بنظرة طويلة, ثم مدّ يدا معروقة وممسكة بعقد بيع المنزل, فوقع (لي) عليه ونقد الرجل ثمنه..

وقبل أن يرحل العجوز التفت إلى (لي) قائلا له:

– قد أعذر من أنذر!

– "أعتقد أنك قد تسرعت بشراء هذا المنزل المخيـــف يـــا سيدي!"

كانت تلك كلمات (كوان) تابع (لي) الذي أوقد الفانوس وهو يتمتم باسما:

– لا عليك, إنها مجرد تخاريف الشيخوخة!

تلحف (كوان) بالبطانية هامسا بصوت مرتجف:

– أشعر بالخوف!

– أنت تشعر بالبرد فقط..

كانت النافذة مفتوحة, ولما همّ (لي) بإغلاقها فوجئ برؤية أغرب شيء..

كانت هنالك يد زرقاء ممدودة عبر النافذة, تحمل بين أصابعها رسالة, والمخيف في الأمر أنها كانت يد وذراع فحسب, إذ لا وجود للجسد كله!

– "شبح"!

كذا صاح (كوان) في رعب, فقال له (لي) بحزم متأملا تلك اليد المخيفة:

– اهدأ, لا تدع الخوف يتمكن منك هكذا..

بقيت اليد ممسكة بالرسالة الملفوفة بعناية كما لو كانت تنتظر من (لي) استلامها, فما إن فعل حتى تلاشت اليد كأن لم تكن!

– "هذا أغرب ساعي بريد صادفته في حياتي!"

كذا قال (لي) متأملا رسالة الشبح , فقال (كوان) متلهفا:

– ماذا تقول الرسالة يا سيدي؟ اقرأها بسرعة أرجوك..

فضّ (لي) الرسالة وابتدأ القراءة:

إلى مالك المنزل الجديد (لي سن اين)..

أمهلك حتى فجر يوم غد كي تغادر منزلي الذي أقطنه منذ سنوات عديدة, واعلم بأني قد أجبرت الجميع من بني جنسك على الخروج دونما رجعة, وكل من حاول أن يتحداني نال العقاب الرادع, فلا تحاول اختباري لأن القتل لا يعتبر خطيئة لشبح!

التوقيع: "قائد الصفصافة"!

طوى (لي) الرسالة مجددا, وبدا ساهما شارد الذهن وهو يغمغم واجما:

- "قائد الصفصافة"! من تراه يكون بحق الله؟

لا أحد يمكنه الإجابة عن ذلك السؤال سوى رجل الشرطة (ين)..

و(ين) هذا كان قد قام في الماضي بعمل جريء وشجاع, إذ أنقذ امرأة مسنة من حبل المشنقة الذي لفه أحد الأشباح المنتحرين حول رقبتها, وقد أغضب تدخل (ين) الشبح, ودخل معه في صراع مضن حتى مطلع الفجر, عندئذ أصاب الوهن الشبح وتحول إلى قطعة من الحطب!

وجد (لي سن اين) الشرطي الكهل في المخفر عاكفا على تقشير برتقالة, فحياه وجلس معه للدردشة..

قص عليه قصة المنزل ورسالة قائد الصفصافة, فقطب (ين) جبينه متمتما:

– قائد الصفصافة؟ لا أظنك تود تحديه يا بني, فقد كـــان الرجل في الماضي أحد أقوى مغاوير الإمبراطور قبل أن يقتل في إحدى المعارك, فنصبته الأشباح قائدا عليها وصـــارت تطيعـــه طاعة عمياء..

– ولماذا يسمى بقائد الصفصافة ؟

– لن تجد أحدا هنا لا يعلم مقره العتيد, إنمـــا الصفـــصافة ذات الأعوام المائة , والموجودة عند المنحدر القريب..

شكره (لي) كثيرا, وقبل أن يغادر سأله:

– هل تعلم الطريقة المثلى لهزيمة شبح ؟

لا أحد يمكنه الإجابة عن ذلك الـــسؤال ســـوى الحكـــيم (بي)..

(بي) الذي اعتزل الناس, وصار ناسكا يتأمـــل في كهـــف بارد, أمضى ليلة من ليالي أسفاره الطويلة في فنـــدق مهجـــور مليء بالأشباح, وعندما كان يغط في نوم عميق استيقظ إثـــر سماعه أصواتا مروعة, فوجد أربعة أشباح تنظر إليه, كان الأول لرجل مات غرقا, والثاني لقاتل حوكم وقطع رأسه, والثالـــث لامرأة شنقت نفسها, أما الرابع فقد أحرق حتى الموت..

لا أحد يعلم كيف تمكن العجوز الحكيم من التغلب على الأشباح, ولذلك زاره (لي) كي يستفيد من خبرته..

استقبل الحكيم (لي) بحفاوة, وجلسا داخل الكهف أمام نار أشعلها الحكيم كي لا يشعر (لي) بالبرد القارص, ومن ثم سأل (لي) الرجل:

– أيها المعلم (يي), كيف تمكنت من هزيمة الأشباح الأربعة بحق الله؟

أجاب الحكيم (يي) معابثا لحيته التي لامست الأرض من شدة طولها:

– بالشجاعة وإظهار اللامبالاة! إذا كنت غير خائف فلن تتمكن الأشباح "كوي" من إيذائك أبدا, فقد أمرتهم بالكف عن الظهور في الفندق في تلك الليلة, وإظهار السلوك الحسن كي ترتاح أرواحهم المعذبة ولو قليلا, فوافقت الأشباح ثم تلاشت..

نهض (لي) محييا الحكيم على الطريقة الصينية التقليدية بضم أصابع اليد اليسرى مع القبضة اليمنى قائلا باحترام وهو ينحني:

– إنني انحني لحكمتك وشجاعتك يا معلم, فقد أفدتني كثيرا!

قال (كوان) بنبرة متوترة مشيرا إلى نقطة ما عند المنحدر:

– لا بد من أنها الصفصافة التي نبحث عنها يا سيدي..

كان (لي) يحمل القوس والنشاب, وقد وضع سهما في وتر القوس استعدادا منه لأية مواجهة قد تحدث بينه وبين الأشباح..

سأل (لي) تابعه بغير اكتراث:

– أأنت خائف يا (كوان)؟

– نعم أنا خائف!

– يجب ألا تخاف وأنت برفقتي..

فجأة بزغ شيء ما , فصاح (كوان):

– طيف رجل يا سيدي!

– لقد رأيته..

وبسرعة سدد (لي) سهمه باتجاه ذلك الطيف الذي أطلـــق صرخة مروعة قبل أن يتلاشى, فاتجها إلى حيث اختفى ليجـــدا السهم مغروزا في ثمرة قرع!

قال (كوان) متعجبا وهو يهرش جبهته:

– يا للغرابة! الشبح أصبح ثمرة!

– أرأيت ؟ إن الأمر لا يعدو كونه تسلية إذا مـــا تمعنـــت بالأمر!

ضحكا قليلا قبل أن يشير (كوان) إلى آثار أقدام متجهة صوب الصفصافة المسكونة, فاتجها إليها ليجدا شبحا يرتدي ملابس المحاربين القدامى بانتظارهما..

قال الفارس المحارب ملوحا بسيفه عاليا:

– من ذا الذي يجسر على الدنو من شجرة قائد الصفصافة؟!

لكن (لي) أخرسه بسهم جعله يتلاشى وهو يطلق أعتى الصرخات, ثم دنا من الشجرة وتأملها مطولا..

قال (لي) لتابعه (كوان) وهو يتفل في كفيه ويفركهما جيدا:

– ناولني الفأس يا (كوان) , فسنكون بحاجة لحطب كثير في الشتاء للمدفأة!

نهاية الحكاية.. وهي حكاية قد لا تجدها مرعبة إلى ذلك الحد, لكنها أثرت بزغدة التي همست مرتعدة وأسنانها تقضم الملاءة:

– إذن كان قائد الصفصافة هو البعبع!

فترد عليها مدام (باسينت) ضجرة:

– أجل لكنه الآن أصبح مجرد ثمرة قرع متعفنة, اخلدوا للنوم في غرفكم الآن..

أما (حلزون) فقد تأثر بالحكاية بصورة عجيبة, وان لم يظهر ذلك لأحد..

لم يحدث أن سهر أو نام دون رؤية قائد الصفصافة, وصار يشاهد اليد الزرقاء تخرج له من كل جدار ونافذة برسالة بين مخالبها, وقد دوّن عليها تهديد بقتله هو شخصيا! حتى أنه شك بأن لتبريس وعفاريتها يدا بالموضوع!

ولأنه وجد الأمر لا يطاق وقد زاد عن حده طلب ملاقاة (شاهر) في مكتبة المصح, فلم يتردد الأخير أو يتأخر..

حكى له (حلزون) عن قائد الصفصافة ومطارداته التي لا تتوقف عند حد..

– "الليلة الماضية بعث لي برسالة تقول أن الليلة عند منتصفها سيكون مماتي!"

لم يسخر (شاهر) منه, لم يناقشه حتى.. ظل صامتا منصتا والفتى المشلول يواصل حديثه مرتعدا:

– أنت الوحيد الذي بإمكانه إنقاذي يا (شاهر), فأنت الفارس الذي سيقهر قائد الصفصافة وأنا تابعك!

– لست تابعا..

– بل أنا تابع! بشللي وكرسيي اللعين أنا تابع!

وتراجع بكرسيه هامساً:

– لا أريد أن أموت!

رمقه (شاهر) بصمت, ثم نهض ليربت على كتفه..

وظل (حلزون) على حال سيئة طيلة اليوم, يراقب بأسى جمال (ناردين) وطيبة (أزوريت) وحمق آنسات "نادي الخافيات", وبحث (راهب) المحموم عن الكائنات الفضائية..

زار (لؤلؤة) بعد أخذ إذن من (ضارية), فتحدث معها لساعة أضحكها خلالها كثيرا قبل دخول (ضارية) وأمرها له بالخروج لأنه أنهكها كثيرا, وأثناء عودته إلى غرفته التقى براهب وخوذته العجيبة فقال له باسما:

– جرب التخاطب مع الكائنات الفضائية بالموسيقى الهادئة, فهي لا تعرف لغة غير هذه!

وفي غرفته وعند انتصاف الليل, سمع (حلزون) طرقات خافتة على بابه, فتحرك بكرسيه صوبه وفتحه, فلم يجد أحدا..

خرج للممر مغالبا جبنه, وبأسنان مصطكة تمتم لنفسه:

– إذا كان لابد من الموت فلأمت بماء الوجه إذن!

وفجأة لمح ظلا يركض باتجاه المكتبة, فلحق به وقلبه يخفق بعنف يكاد يسمعه بأذنيه, ووجد الباب شبه موارب والضوء آت منه, فابتلع ريقه متحركا ببطء للداخل..

وجد فوضى في قسم كتب الأساطير والخرافات, ومن بين الأرفف تمكن من رؤية يد المسخ الخارجة ذات الزرقة المروعة والمخالب السود الحادة, فأطلق أعتى صرخاته:

- النجدة يا (شاهر)!

بوغت بشاهر يقتحم المكان بالفعل! والأغرب من هذا كله أنه كان ممسكا بقوس ونشاب صوبهما بسرعة اتجاه يد المسخ, ثم وبدقة أطلق سهمه ليستقر في اليد المختبئة بين الأرفف!

ثم وكأن الزمن صار يتحرك ببطء, مضى (شاهر) نحو السهم البارز ساحبا إياه من بين الكتب المبعثرة في الأرفف, ففوجئ (حلزون) به منغرسا بثمرة قرع!

نزع (شاهر) السهم من الثمرة, وقذفها بخفة قبل تلقفها قائلا لحلزون ببسمة عذبة:

- إن الأمر لا يعدو كونه تسلية إذا ما تمعنت بالأمر!

٨

تقول الأغنية السيئة:

"إذا أحببتك فلا تحبني..

لا تصنع المثل فانا أريد كراهيتك!

حبك صنع الخير في نفسي..

والشر ناقص أكمله من غرائزك!

لكنها بصوت (خرير) الرائع تتحول إلى مقطوعة موسيقية تطرب لها الآذان, فإذا ما غنتها حتى أمام (باسينت), تصمت مستمتعة!

ولكن لمن تغني (خرير)؟ ومن تقصد بتلك الكلمات المنفرة؟

لطالما أخفت ذات العقيرة الملائكية إعجابا خفيا بأمير المصح الجميل, فعندما يظهر (داهوت) بخضار مقلتيه وشقار شعره تبدأ (خرير) الغناء بصوت خافت مراقبة خطواته, تضحك لضحكه, وتعبس لعبوسه, وتغضب لغضبه!

كانت تتصرف كزوجة مطيعة له بالخفاء, حلمت به أكثر الليالي وهو يقبلها, ثم حلمت به يقبل سواها, وقد كانت (ذهب) هي أقوى المرشحات لنيل قلبه, فالفتاة تتمتع بفتنة مغيظة كما لو كانت عارضة أزياء من اللواتي رأت صورهن في

المجلات النسائية, أما عنها فحمالها لا بأس به, تقطيبتها جذابة, لكن أنفها مفلطح قليلا, وعندما تطالع نفسها في المرآة, تصطدم دوما بأنفها, فتتمتم عابسة:

– لن يعجب بي طالما وجهي يحمل هذه الأضحوكة!

سرت حين أعلن (داهوت) مرة ألا صوت يضاهي صوتها, رقصت في غرفتها حتى أعياها التعب, ونامت حالمة بشتى أحلام الرومانسية الوردية, رأته يقطف وردة ويدسها وراء أذنها, ثم يبدأ بتقبيلها حتى تستسلم بين ذراعيه وتستكين, وحين تستيقظ تقبض جيدها بأسى لأن الواقع مختلف..

لم تكن علاقتها وثيقة بالفتيات, كانت تراهن خصوما غدارة لا تجد الصداقة معهن نفعا, بل إن ضررها أكبر من منفعها, كانت تفكر دائما وأبدا بحبيبها الذي وقعت في هواه مذ ولج المصح للخلاص من عذاب الإدمان..

ربما حادثت (قبرة) البدينة قليلا, فهي بلهاء نهمة للطعام لا خطورة منها, كان هذا قبل أن تصفن يوما في غرفتها مفكرة: ولكن ماذا لو كان ذوقه في البدينات البلهاوات محبات الطعام؟

هكذا نبذتها هي الأخرى!

كانت تغني لأزوريت كثيرا منتظرة سماع السؤال حتى التقطته أذناها أخيرا..

- "من تقصدين بتلك الكلمات العجيبة يا حبيبتي؟"

كفت (حرير) عن الغناء, وبخجل قالت كلمة واحدة لم تندم على تلفظها:

- (داهوت)!

رمقتها (أزوريت) بنظرة ارتباك, وبضحكة قلقة دمدمت:

- آه! محبوب الفتيات الأول! ألم تجدي غيره؟

عبارة متناقضة غريبة, سببت قلقا داخليا للفتاة.. ماذا عنت تلك المرأة؟ أتكون هي الأخرى مولعة بالفتى؟ إنها أكبر منه بكثير, كما أنها متزوجة!

وظلت موسوسة بالفكرة حتى قررت نبذها بادئ الأمر, ثم استعادت رباطة جأشها مقررة التصرف بدهاء..

كانت كالجمل لا ينسى أبدا, فتأكدت من أن أسبوعا سيكون كافيا وأكثر لنسيان ما جرى بينهما, ثم زارتها بغرفتها, وغنت لها قليلا حتى صفى الجو لها تماما..

بعينين مسبلتين وابتسامة هادئة همست (حرير):

- ما رأيك بصفير؟

- الله! ما أجمل الحب!

فكرت (خرير) قليلا والغيظ يملأ كيانها, إذا كانت هذه المرأة تحب (داهوت) فلن تعترف لها بذلك أبدا, كما أنها تعلم بمشكلة (صفير) الأحمق ومع هذا لم تذكرها!

إذن هي تحاول إقصائها عن طريقها لكن هيهات..

تظاهرت باللامبالاة وهي تراقب كل خلجة من خلجات (أزوريت)..

- "وجدت (داهوت) واقع بهوى أخرى فتنحيت.."

ضحكت (أزوريت) قائلة ببلاهة:

- مسكينة (ناردين)! الفتى يطاردها كظلها وهي لا تكف عن التذمر!

اتسعت عينا (خرير) بظفر وغضب, فقد وجدت غريمتها الخفية أخيرا!

صارت تظهر برودة اتجاه ألطف فتيات المصح, وأحيانا توقع لها طعامها أو توغر صدر (وجيهة) عليها.. من الذي كسر الطبق؟ (ناردين) كسرته! من الذي لطخ مفرش المائدة ببقع الحساء؟ (ناردين) لطخته!

لم تعاقب (وجيهة) (ناردين) سوى مرة واحدة, ولكن عندما انهال سيل الاتهامات على رأس الفتاة التي تتقن فعل كل

شيء شكت المرأة الحذقة بالأمر, فقالت في يوم لناردين الـــتي كانت تساعدها في الحلي:

– أرى أن تحلي المشكلة – أيما كانت– بينك وبين (خرير)، الفتاة لا تنفك تكيل لك اتهامات باطلة, ولا شيء أسوأ مـــن حقد فتاة على أخرى!

٩

أعجبت مدام (باسينت) بالمريض الأشقر مذ وقع بـــصرها عليه للوهلة الأولى, فقد كان حسن التقاسيم نضر البشرة رغم قذارة ثيابه, كما أنه الوحيد الأشقر وبعينين زبرجديتين..

عند اللهو يصير الآمر الناهي, ووقت الأكل ينال نـــصيب الأسد, فأغلب الفتيات يتنازلن له عن قطع البسكويت الـــذي يحبه..

كان زيرا ماكرا, غالبا ما يغتنم الفرصة لتقبيل هذه أو تلك, حتى انه في مرة وعندما استوثق من حب الفتاة (خريـــر) ذات الصوت العذب له, وعدها بقبلة ما إذا تجردت من ثيابها كلـــها واضطجعت أمامه كما ولدتها أمها!

لم تصنع كما أمر, وولت منتحبة إلى الحمام, فلحـــق بهـــا وقلبه يرتعد من وشايتها لمدامته الصارمة في مثل هذه الأمـــور, وعلى الباب الذي أوصدته على نفسها همس لها بنعومة ثعبان:

– هلمي يا حلوة, أنا أمازحك فقط! أنت لـــن تفـــسدي صداقة جميلة بسبب مزحة سخيفة.. أليس كذلك؟

وعندما يسأم من استجابتها يركل الباب بقسوة, ويبتعـــد ولسانه آخذ بكيل الشتائم المقذعة..

أثناء خروجه يفاجأ بشاهر, فلا يحاول إغاظته أو اعتـــراض سبيله, بكره يطأطئ رأسه وعقله يصرخ كبركان ثائر:

– "لو أن لي مثل قوتك وسطوتك لأشبعتك ضـــربا حـــتى تخضع لي!"

وللشلة التي لا يجمع بينها سوى كراهية ذاك المدعو (شاهر) يجالس الأمير الجميل – مضطرا- أقبح مريـــضين, (ثؤلـــول) بثآليه, و(بلحة) بندبته المفرقة في المساحة أكثر ما بين حاجبيه..

فيما عداهما كان هواه لدى الفتيات, يغازل هذه ويقـــرص تلك, أحيانا يلق استجابة وأحيانا الصمت الخجول..

وعندما نبهه فؤاده لضآلته أخيرا, وجد ألا أصلح له من تلك الحورية اللطيفة المسماة (ناردين)..

كانت أول صفعة ينالها في حياته من يدها, فاستشاط غضبا حتى كاد أن يضربها لولا أن فوجئ بقبضة صارمة تكبـــل لـــه يده..

كانت قبضة (شاهر) الذي سأله بحزم:

– أتود ضرب فتاة؟

– إليك عني!

– ليس قبل أن تعتذر!

وهنا صنع (داهوت) أجرأ فعلة في تاريخه المخزي, فقد بصق في وجه (شاهر) الذي تفاداها بسرعة ويقظة, حاول الخائـــب

ركله بلؤم في ساقه, ثم حاول قبض مواضعه الحساسة لهرسـها بقبضته.. كان يحاول القتال بشراسة مخنث يكاد يقع ضـحية للاغتصاب, و لم تجد محاولاته نفعا مع (شاهر), كـل ضـربة ومحاولة إيذاء لم تجد سبيلها إلى جسده, فقد كان يبعد هجماته براحة كف لا مبالية كأنها تنش الذباب فحسب!

وفي النهاية لوى (شاهر) ذراعه وأجبره على الركوع قـائلا له بخشونة:

– قلت اعتذر!

صرخ (داهوت) متألما:

– أعتذر!

– أعلى!

– أعتذر!!

فأطلق سراحه, وتركه يمضي والدمع يكاد يطفح من عينيـه الجميلتين, واعدا نفسه بالانتقام لها من (شاهر)..

ذات مرة كان (شاهر) يتمـشى برفقـة (سـرعوب) في الحديقة, عندما أزاحه جانبا وهو يهتف:

– احترس!!

ثم التفتا معا إلى جذع الشجرة ورائهما, فتبين لهما سـهم خشبي صغير الحجم مغروز في اللحاء!

تمتم (سرعوب) بتقاسيم كالحة:

– أحدهم حاول قتلك! كان يستهدفك أنت!

عبس (شاهر) منتزعا السهم الضئيل الذي أطلق من سلاح ما, قذفه في الهواء قبل معاودته التقاطه هامسا بغم:

– أتراه هو؟

– هو من؟

– لا عليك..

يوم حفل ما قبل زفاف (أزوريت) ارتدى الأمير بدلة سوداء وربطة عنق قرمزية ذات دبوس ذهبي على شكل وردة, ومشط شعره للوراء, ثم دسّ منديلا طواه بعناية في جيب البدلة الأنيقة العلوي, ووضع في الأكمام أزرارا ذهبية منقوشة, فصار نجم الحفل بلا منازع بين الذكور..

ورغم أن (ذهب) كانت نجمته, إلا أن بصره لم يتزعزع عن جمال (ناردين) التي رفلت في ثوب أقحواني التصق بقوامها المتناسق التصاقا, وقد وضعت على كتفيها العاريتين شالا حريريا شفافا ذا زرقة سماوية, وعقصت شعرها كملكات فرنسا القدامى, فألهبت مخيلته وبشدة, وظل يطاردها طيلة الحفل رافضا إلقاء نظرة على الأخريات اللواتي بالغن في تأنقهن وإبراز أنوثتهن..

وحدها واقفة تحادث (شاهر) وتضحك, فاربدت سحنته, كانت مستندة للجدار وتملأ بصرها بملامحه القوية, وانزعج لما قبلت منه كأس العصير الذي قدمه لها..

جلس شاعرا بذوبان بين ثناياه, وترددت تأوهات حسرة في داخله مسترجعا تفاصيل أنوثتها المبكرة وجمالها الذي خلب الألباب..

دنت منه (حرير) متسائلة والحمرة تقطر من وجهها:

– أتراقصني؟

– أنا.. مرهق!

فابتعدت بفؤاد كسير كالعادة, فتبسم الفتى شامتا ووجهه مرفوع قليلا للسقف..

– "تبدو متزعجا.."

عدّل برأسه للأمام, فوقع بصره على (غصون) وقد ارتدت فستانا دموي اللون تبرز من جانبيه السفليين سيقانها الناصعة ذات التناسق البارع, فحركت شيئا في نفسه أخيرا, ونهض ليهمس في أذنها, ثم تحرك مبتعدا وهي تلاحقه ببطء متلهف محاولة ألا تهرع وراءه فتلفت الأنظار لهما..

في المصح تصرف (داهوت) كأمير حقيقي, فكان يطلب امتطاء "عداء الصحراء", وعندما يفعل يلهب ظهره بالسوط وهو يضحك متجاهلا صراخ (جروح) وتوسلاتها ألا يؤذي

الجواد أكثر, ولم يوقفه سوى تدخل صارم من صوت لطالما خشي صاحبه ومقته:

- "كفّ عن ضرب الحصان!"

رمقه (داهوت) بنظرات مستهينة من فوق الحصان قبل قوله:

- وماذا لو رفضت؟

- عندها أرميك من فوقه!

- لن تجرؤ وسأفعل ما أشاء فهو حصاني!

- لم تترك لي خيارا..

هكذا وثب (شاهر) من فوق الحاجز الخشبي مادا ذراعه صوب الأمير, فرفع الأخير ذراعه, وبكل قوته أهوى بالسوط على وجه (شاهر) صارخا والغضب يذيب خلايا مخه تذويبا:

- يا جربوع! يا حيوان!

أمسك (شاهر) به وبالسوط, وقذفا قذفه من فوق الحصان أرضا وهو يقول متهكما:

- لقد عرفت أصلك أخيرا, لابد وأن والدك كان إقطاعيا من الأتراك الذين يجلدون الفلاحين بسياطهم دائما!

١٠

إذا كان (داهوت) هو "الأمير الجميل", فذهب هي حتما "الأميرة الجميلة"..

أي كلمات تعطي فتنتها وأنوثتها حقوقها كاملة؟ كانت ذات شقار ذهبي, محياها خمري لذيذ, حسدها كل الفتيات على شفتيها الناضحتين وصدرها الممتلئ وقوامها المثني ببراعة, وحسدها أكثر على زرقة المحيط في عينيها الواسعتين الثملتين قليلا..

حتى أيام الإدمان كانت تعنى بصفاء بشرتها, فتستحم يوميا مرتدية الشيء الوحيد الثمين الذي امتلكته مذ ولجت المصح, قلادتها الذهبية ذات نقش الدلفين, فلم تكن تفارق جيدها البتة, في النوم, في الحمام, في كل الأوقات لم تخلعها أبدا..

ارتدت أجمل الفساتين والتنانير دوما, وسرى عبق مسكي من جسمها كلما دخلت أو خرجت, وعندما تفعل تطالعها النظرات بنهم ذاهل وحسرة مؤلمة, حتى أن (شبابة) صفرت مرة عندما وقع بصرها عليها قائلة بإعجاب:

– علام توحمت والدتك يا فتاة؟ فراولة بمخفوق الكريما؟

كانت من اللواتي يثقن بأنفسهن ثقة عمياء, جمالها من النوع الذي تتفتح له السبل بكل تأكيد, لكن طموحها لم يكن غير عادي..

كانت تطمح لحب من فتى معين لفت اهتمامها مذ ولجت المصح, الوحيد الذي لم يسل له لعاب أو تجحظ له نظرات لدى رؤيتها, ولأن السهل الممتنع يتمتع بثقة تماثل ثقتها فقد رصدته هدفا لها..

لم تسلم طبعا من تحرشات (داهوت) بها, لكنها أعرضت عنه و لم تستجب له, فقد تبدى في ناظريها كائنا جميلا فارغا إلا من السخف, ربما كفتاة متصابية مثل (شبابة), حتى (ضارية) تتحلى بصفات ذكورية بأكثر منه!

حولت غرفتها بعون من الفتيات المتحمسات إلى غرفة من الطراز الفيكتوري, وتسوقت مع (أزوريت) لشراء قمصان نوم مريحة وفساتين على الموضة باهظة الثمن, واشترت أقراطا لؤلؤية لأنها وجدتها مناسبة لأذنيها أكثر, و لم تبتع أساور أو خواتم لأنها كانت تراها قبيحة على الفتاة..

كانت العيون تصبو لها فتيانا وفتيات, الفتيان يرمقونها بعيون نهمة آملة بالارتواء من كنوز جسمها, والفتيات يطمحن لأن يصرن أفضل صديقاتها, فقررت إيجاد وسيلة جيدة ومسلية لتخير الأنسب لها من بينهن..

هكذا قامت ذات يوم بخلع حذاءيها, وصالت وجالت حافية القدمين بتبختر لافت للأنظار, واجتمعت بها الفتيات متسائلات عن السبب بفضول..

فرفعت إصبعا قائلة بلامبالاة كي تزيد من شعلة حماستهن:

– لقد استحققت سيادة نادي "الآنسات الحافيات" وعن جدارة!

وبالطبع أردن معرفة المزيد, فتبسمت قائلة بتكاسل عذب:

– بكل بساطة طبقت الشعار لأصير عضوة وقائدة بالنادي..

وأنتن بإمكانكن الانضمام, ومعناه دخولكن وبشكل رسمي غرفتي دونما دعوة كي نقوم بنشاطات خاصة!

تساءلن عن شروط الالتحاق بناديها المزعوم وهن يحلمن بدخول غرفتها الجميلة المعطرة لرؤية الفساتين والحلي, فغمغمت بمكر:

– شرط بسيط, كل راغبة بالانضمام للنادي عليها بداية أن تتخلى عن حذاءيها!

وفي ثوان صارت غالبية الفتيات مجردات من الأحذية, فتبسمت بخفوت هامسة بدهاء:

– ليس الأمر بتلك السهولة التي تتصورنها.. ثم على الفتاة أن تضع قدما حافية على صدر فتى وتردد: "باسم عضوات النادي الجميلات أعلنك حارسا علي!"

وعندئذ سارعت أكثريتهن إلى انتعال أحذيتهن والابتعاد خجلات, كانت (قبرة) البدينة من بينهن, لكنها ابتعدت وكأنها تزحف إذ بدا وكأنها تريد البقاء لولا ألسنتهن السليطة,

إلا (ظلال), و(غصون) التي تساءلت بوجه مخضب بحمرة الخجل:

– إذن فقد فعلت ذلك مع أحدهم؟ من تراه يكون؟

رفعت رأسا مزهوة مجيبة:

– بالطبع فعلت! فعلتها مع (شاهر)!

وافقت الفتاتان على تنفيذ الأمر على مضض, لم يكن الجمال ينقص واحدة منهما وإنما الجرأة التي تتحلى بها قائدة النادي العجيب!

وهكذا عكفت (ذهب) على مراقبة المرشحتين لنيل عضوية النادي, مشترطة عليهما القيام بالشرط الأساسي أمامها كي لا يكون ثمة مجال للخداع..

وذات يوم دنت منها (ظلال) قائلة ببساطة:

– أنا مستعدة..

واقتادهما إلى غرفة المعيشة حيث رقد (بلحة) وابتسامة بلهاء تعلو وجهه!

اقتربتا منه, وبكل بساطة وضعت الفتاة قدمها العارية على صدره مغمغمة بثقة:

– باسم عضوات النادي الجميلات أعلنك حارسا علي!

صفقت (ذهب) جذلة وهي تقول مهنئة بمكر:

- قبلتك كعضوة بالنادي!

تهلل وجه (ظلال) أيما تهلل, في حين تساءل (بلجة) مواصلا التبسم الأبله:

- أهذا كل شيء؟

وهكذا صارت (ظلال) العضوة الأولى في ناد بـــدا كعـــالم وردي مثـــالي, فالغرفـــة ولا أروع, والفـــساتين ولا أجمـــل, وبإمكانها استعارة ما تشاء من الحلي والثياب, بل وأن تحظـــى بتصفيفة شعر خاصة بها لأن قائدة النادي تملك الموهبة..

هكذا تبدت (ظلال) آية في الحسن بعدما كانت مجرد فتـــاة عادية لا تثير الطموح كثيرا - اللهم إلا طموح بلجـــة-, ممـــا دفع (غصون) إلى اتخاذ قرار سريع وإجراء أسرع..

هكذا فاجأت (ذهب) يوما بجلبها الأمير الجميل شخـــصيا! وبنظرة متحدية رمقت (ظلال) الذاهلة قائلـــة بـــشيء مـــن الشماتة:

- جئت لتأدية القسم!

كانت قدماها عاريتين, فنظرت (ذهـــب) إلى (داهـــوت) وسألته:

- أمستعد حقا لتنفيذ ما طلبت منك؟

ردّ مستهينا وهو يمضغ قطعة علكة:

- أي شيء لأجل (غصون) الجميلة! ثم ان الأمر ســـيكون مسليا!

وهكذا أصبحت (غصون) هي الأخرى عضوة في نادي "الآنسات الحافيات"!تحولت (ذهب) لأميرة حقيقية, وقد أعجبت (وجيهة) بتصرفاتها حتى أعلنت أمامها وأمام مديرتها (باسينت) ذات مرة أن (ذهب) فتاة تستحق كل ثناء وتقدير, فهي تتصرف كسيدة محترمة! كان هذا في النهار فقط, ولكن عندما يحل الليل, تبدأ اجتماعات النادي السرية, فتخلع الفتيات أحذيتهن, ويتنقلن بأقدام حافية في الممرات مع وضع قاعدة جديدة وصارمة: ألا تراكن (وجيهة) أبدا!

في الدروس أظهرت (ذهب) تفوقا مثيرا للاهتمام, حتى أنها نافست (ناردين) الذكية, وقد كرست أكثر الوقت لتعلم اللغة الفرنسية, فقد كانت معجبة بالفرنسيات ورقة لغتهن وجمال ثيابهن وعبق عطورهن, فقررت أن تصير مثلهن, وبالتالي صار ذلك شرط النادي الجديد.. في حين قال (داهوت) بتهكم لها لما تناهى لمسامعه ما تنوي فعله:

– لكن الآنسات الفرنسيات ينتعلن أحذيتهن!

قالها رغم استمتاعه بمراقبة أقدامهن الدقيقة البيضاء وهي تخطو برقة الفراشات على الأزهار فوق البلاط البارد..

و لم تكترث (ذهب) لما قاله, كما أنها تعلم مدى استمتاعه المريض بمراقبة أقدامهن عارية, وتعلم استمتاعه أكثر بمراقبة (ناردين) وهي تصنع أي شيء! كما أنها تعلم مدى تعلق (خرير) به!

١١

في صغره كان (راهب) صبيا عاديا يحب العزلة إلى حد ما, لكنه لم يبد خبلا ولا حمقا في أي شيء..

ثم وقعت الطامة الكبرى في المصح, عندما وافقت (باسينت) أخيرا على مطلب (أزوريت) باصطحابه معها للسينما كي يشاهد فيلم خيال علمي يتحدث عن غزو أهل الفضاء لسكان الأرض بأطباقهم الطائرة..

كانت المؤثرات مقنعة, مقنعة زيادة عن اللزوم, فاختلط الواقع لدى الخيال في عقل الفتى, حتى أنه ردد عندما خرج من دار العرض:

– إنهم يصولون ويجولون بيننا ونحن صم بكم!

ثم ابتدأت اللعنة.. صار (راهب) صاحب فكر بعيد كل البعد عن الواقع, حلم بكائنات ذات جماجم كالبطيخ وعيون وثغور مشقوقة طوليا كالعفاريت, متباينة اللون ما بين الأزرق والأخضر, أجسامها رفيعة وتمتلك ثلاثة أصابع طويلة في كل يد وقدم!

ثم واصل سخافاته مدعيا أنه أبصر طبقا طائرا فوق سطح المصح, فضحك (بلجة) منه قائلا بسخرية:

– إنه لا يفرق بين الطبق الطائر وطبق "الدش"!

والمقصود "الدش" فوق سطح غرفة الحارس (هدهد)!

لكنه أصر على أن الطبق الذي رآه بعرض ملعب كرة قدم, وبأنه مصنوع من الفضة الخالصة, ولما سخروا منه وسألوه عن كنه الكائن الفضائي الذي يعرف الفضة, أجابهم بإصــــرار أن الفضة ليس معدنا أرضيا..

اعتكف في غرفته مطالعا الكتب المستعارة من (حلـــزون), والتي تتحدث عن الاجتياح الفضائي, قرأ كتبا عـــن التـــسلح الأمريكي بصفته الأكثر تطورا, وعندما فرغ من مطالعة كتبـــه وقف مدمدما في قلق:

– لا يكفي! لا يكفي!

صدق كل تلك الأقاويل عن روزويـــل, وصـــدق كـــل الإشاعات المترددة حول حقول الذرة ذات الإشارات المتروكة من سكان العالم الخارجي.. باختصار صدق كل ما يمت بصلة للعوالم الخارجية..

يظن (راهب) أن المخلوقات المسالمة تحاول تحـــذيرهم مـــن تلك الطاغية التي أرسلت منذ سنوات مديدة كشافتها لرؤية ما إذا كانت الأرض تصلح للغزو أم لا, ويعتقد أن مدة الكـــشافة قد انتهت..

– "ولم يتبق إلا موافقة مجلس المخلوقات البلدي على عملية الغزو!"

بالطبع لم يكبح (حلزون) جماح سخريته واستنكاره بـآن واحد عندما زاره (راهب) طالبا المشورة, ومرجعا لـه بعـض الكتب التي استعارها..

وجد أن المناقشات العلمية لن تنقـذ الأرض, فعمـد إلى تصميم خوذة ذات مصباح وراديـو, وحمـل التخطـيط إلى (صفير) الذي يتقن صناعة اللعب وتفكيكها وإصلاحها, طالبا منه أن يصنع له واحدة..

قام (صفير) بالمهمة على أكمل وجه, فصار (راهب) يخرج في جولات ليلية ومعه كشاف باحثا عن أثر تشويش في الراديو المفتوح والمعلق فوق خوذته, لأنها إشارات تبثها الكائنات مـا إذا كانت قريبة, وكلما وقع تشويش في المحطـة, زاد تـوتره وانفعاله..

وظل على عادته البلهاء زمنا, حتى عاود زيـارة (صـفير) حاملا تصميما أعقد لجهاز أغرب, وبثقة لامتناهية قال له:

– هذه المرة سأؤمن لكم جميعا الحماية بسلاحي هذا!

– هذه الخردة قد تستغرق مني وقتا وأنـا مـشغول هـذه الأيام..

– العالم لن ينتظر!

– سينتظر, ثق بي!

ولما فرغ (صفير) من السلاح, باشر (راهب) وبهمة في جولاته متسلحا بخوذته والمذياع والكشاف, وجهاز مضحك يشابه المكنسة الكهربائية! حدث ذات مرة أن شك بتبريس على أنها كائن فضائي, ولم يكن الأحمق يفرق بين فضائي وجني, وابتدع نظرية سخيفة بأن الجان ما هي إلا مخلوقات فضائية شريرة تمهد لغزو الأرض, وبأن كل المخرجين العباقرة الذين صنعوا أفلاما مروعة عن غزاة الفضاء ما هم إلا رسل التحذير من الدمار الذي سيحل بالأرض إذا ما وقف البشر مكتوفي الأيدي..

كانت (تبريس) تتجول بتمائمها, و(زغدة) هربا من بعبعها, و(راهب) بحثا عن غزاة الأرض!تقول (وجيهة) باستنكار ساخط:

– صارت ممرات المصح عجب عجاب! كل من هبّ ودب يسرح فيها ويمرح, وكأننا في مصح للمجانين لا للمدمنين!!

كانت على حق, فالأمر بات غير محتمل, لكن (أزوريت) لم تبال كثيرا بما يقع, و(باسينت) اعتبرت ما يقع من الطرائف, كما أنها مشغولة! المرضى أخذوا راحتهم تماما في كل الأمور التي لم يجرؤوا على صنعها في بدايات قدومهم هنا!

وفي ليلة بدر مكتمل, خرج (راهب) باحثا عن الغزاة, فأبصر واحدا منهم خارجا من غرفة (صفير) صانع اللعب ليتمشى في الممر!

كان الغازي قوي البنية ممشوق القوام ذا سترة جلدية سوداء وقميص كحلي وبنطال "جينز" رمادي!

ولأنه ينام شراكة مع (هدهد) الحارس باختياره وبتشجيع من (باسينت) شخصيا لأسباب مجهولة, راقب ذلك الكائن المقنع بغشاء بشري وسيم وبنية أرضية ماكرة, فوجد يده اليمنى عبارة عن كف مسخية زرقاء ذات مخالب سوداء مروعة!!

حمل في اليد الأخرى ثمرة قرع! فتفكر (راهب) مليا, لابد وأن لثمار القرع قوة ما, مصدر طاقة مثلا!

تبع الكائن الذي ظهر على حقيقته حتى توقف عن ذلك عندما ولج ذلك الكائن المزعوم المكتبة..

ثم عاد (راهب) إلى غرفته وهو يرتجف فراقا.. إن (شاهر) هو حتما كائن فضائي مدمر! تلك حقيقة لا مجال لدحضها!!

١٢

- "سيقتلني البعبع!! سيقتلني!!"

يستيقظ الجميع, ويخرجون من غرفهم وآثار النعاس في حدقات أعينهم والتثاؤب يملأ أفواههم.. وتهرع مدام (باسينت) لرؤية ما هنالك, فيقع بصرها على (زغدة) تنشج صارخة وفرائضها ترتعد:

- الغول الغول!!

تصدر أكثر الأصوات ساخرة وأحيانا مرعبة كي يزيدوا من هلعها, في حين يشتمها البعض مطالبين (باسينت) بنقلها إلى قبو إن وجد كي يتمكنوا من النوم..

بدت السيطرة على البنت الرعديدة شبه مستحيلة, فاضطرت (باسينت) لأخذها كي تنام في غرفتها..

- "إلى غرفة ماما!"

يصيح (بلحة) ساخرا, لكن (زغدة) تهدأ أخيرا لأنها متيقنة من أن الوحيدة التي بإمكانها قهر وحوش كوابيسها هي مدام (باسينت) حتما!

ولكن من يقهر الوحوش عندما تصير وحيدة مجددا؟

الحق يقال أن (باسينت) قد تمادت قليلا في أمر (زغدة) لاحقا, فقد اختارت لها غرفة بعيدة كل البعد عن غرفتها كي لا تزعجها بصياحها المستمر كل ليلة..

ثم صارت تتساءل ما إذا كانت ثمة غرفة عازلة للصوت! عندما أخبرتها (وجيهة) أن تلك الغرفة موجودة حقا, فتم نقل الفتاة المسكينة إليها!

قد يكون قرارا سليما وقد لا يكون, المهم أنه أراح الجميع وزاد من عذاب (زغدة) البائسة, فصارت تركض خارجة من الغرفة كل ليلة لتنضم إلى ركب المخبولين الذين يجوبون ممرات المصح بدماهم وتمائمهم السحرية وأسلحتهم غير الفعالة ضد الكائنات الفضائية!

كانت تجربة الحب الوحيدة في حياتها – إذا ما كانت كذلك- قد جاءتها من طرف واحد, فقد تعلق (ثولول) بها, كانت فتاة ذات قوام شبه ناضج رغم هزال ملحوظ في وجنتيها, ذات شعر تعقده على شكل ضفيرة طريفة دوما, لها نمش خفيف جذاب على أرنبة أنفها, وهي نظيفة على الدوام تستحم يوميا ثلاث أو أربع مرات, وفي أيام تظل مستلقية لساعات طوال في بانيو مليء بالماء الساخن, فكانت رائحتها تخلب الألباب طوال الوقت..

كان حبا من طرف واحد وبكل تأكيد, فالفتى بشع بثآليه القابلة للتقيح في أية لحظة, كما أنه يبدو كبعبع آخر من تلك

التي ملأت كوابيسها, وعندما يدنو منها محاولا التودد لها تسارع بالهروب نافرة منه وهي تقول لنفسها راجفة:

– كأن كوابيس النهار تنقصني أيضا!

كانت تلك بمثابة قنبلة رمتها على فؤاد الفتى, لكنها لم تكترث أبدا لما فعلته حتى سمعت بأنه قد مزق ثآليله كلها بسكين, فتملكها ندم عميق, وبكته مدة لا بأس بها قبل تناسيها ما حصل..

كان البعبع الذي تراه ماردا بشعا أسود اللون مكتنز العضلات, تراه دائما واقفا أمامها في الظلام الدامس دون أن يصنع شيئا, وعندما تبصر في عينيه الضائقتين بريقا كبريق القطط في الظلام تباشر الصراخ المذعور وتهرع خارجا.. وذات ليلة خرجت صارخة فرأت (تبريس) قريبة من بابها, استنجدت بها, لكن الفتاة المخبولة يممت وجهها للشطر الآخر, وسارت هامسة:

– لا أريد إثارة حفيظة واحد من الأسياد! الأسياد أنقذوني من الإدمان وهكذا أرد لهم الجميل؟

فاشتد رعبها لسماع ذلك, ونامت تلك الليلة على الأريكة في اللوبي السفلي, وعند استيقاظها خفت إلى غرفة (تبريس) وطلبت الإذن بالدخول, فسمحت لها..

ولما جالستها بدأت بالبكاء الحار, فرفعت (تبريس) يدا صارمة هامسة بلهجة قاسية:

– لا بكاء عندي, تريدين الخلاص؟ اقبلي بالسيد العظيم زوجا لك!

– أتزوج غولا؟!

– أفضل من عذابك, ثم أنه لن يدعك لغيره.. أنسيت ما حدث للمسكين (ثولول)؟

– أهو من تسبب في..

قاطعتها مستهينة:

– أنت غرة ساذجة لا تفكرين في صالحك! أتعلمين ما يعنيه زواجك من أحد أسياد العالم السفلي؟ الدنيا كلها ستخضع عند رجليك! وافقي يا بلهاء ولا تفوتي فرصة العمر!

– لا!!

وتركض هاربة كأن الشيطان في أعقابها, حيث تختبئ في غرفتها وهي لا تكاد تتوقف عن الارتعاد, حتى لتكاد تقضي نحبها بالسكتة القلبية!

وفي النهاية لم تحتمل أكثر..

دخلت الحمام, وملأت البانيو بالماء, ثم تجردت من ثيابها وغطست داخله محاولة إغراق نفسها!

بالطبع فشلت المحاولة, وخرجت من الماء وهي تشهق بذعر, فقد بدا لها الانتحار رعبا ما بعده رعب..

ارتدت ثيابها, وخرجت هائمة على وجهها, من الغرفة, من المصح.. سارت بغير هدى على العشب الأخضر والرياح تؤرجح ضفيرتها..

- "ما بالك؟"

تلفتت شاردة الذهن, فوقع بصرها على (شاهر) المبتسم بدهشة..

كانت قد داست على ساقه بغير قصد, فأخفت ثغرها بكفيها هامسة:

- آسفة!

- لا عليك.. إلى أين؟ أول مرة أراك بها تخرجين, خيرا؟

- لا شيء, أحاول فقط تناسي تعاستي..

ثم واصلت طريقها والفتى يطاردها بعينين تقولان الكثير..

وفي تلك الليلة بينما كانت تمشط شعرها أمام المرآة استعدادا لتضفيره, سمعت طرقا على الباب.. نهضت وفتحته لتجد على عتبته (شاهر) واقفا وبيده مصحف صغير..

- "أتسمحين لي بالدخول؟"

– "تفضل.."

دخل متأملا الغرفة قبل أن يقول باسما:

– غرفة جميلة..

– شكرا..

– أتسمحين لي بقضاء الليلة هنا؟

حدقت به صامتة, فهي تدرك أنه من طراز نبيل لا يسعى للمواضيع المنحرفة إياها, كما أنها بحاجة للرفقة هذه الأيام..

– "بكل تأكيد!"

جلس أرضا موليا ظهره للجدار, وبابتسامة لطيفة غمغم:

– تصرفي وكأني غير موجود معك..

– هذا صعب نوعا, لكنني سأحاول..

هكذا رقدت في سريرها ليثرثرا قليلا, وقد فاجأها بسرد بالغ الطرافة, حيث حكى لها عن فتى عرفه عندما كان يذهب للسوق, كان يهوى النشل لكنه تاب عندما أمسكت به الشرطة وصنعت له اللازم, فانقلب إنسانا مستقيما وصار يبيع السمك على قارعة الطريق.. لكنه ذات مرة استعاد نشاطه الأولي عندما زاره شرطي من الذين أدبوه, وعندما غادر الرجل السوق كانت محفظته قد صارت في جيب الفتى المنتقم!

جعلتها تلك الحكاية تبتسم, فحكى لها حكايات أخرى زادت من بسمتها, ثم صارت تضحك, فتبسم قائلا:

- ضحكتك جميلة! لا أذكر رؤيتك مرة تضحكين!

تورد وجهها لكلامه, فأخفته بالملاءة متمتمة:

- تصبح على خير!

نامت تاركة إياه يفتح المصحف ويبدأ بالتلاوة..

لم ينم (شاهر) البتة في تلك الليلة, ظل جالسا بذات الوضعية يتلو آيات من القرآن الكريم حتى مطلع الفجر..

وعندما تسلل خيط من النور إلى غرفة (زغدة) نهض متثاقلا وخرج بخطى حذرة مكتومة, تاركا إياها تنعم للمرة الأولى في حياتها بنوم عميق لذيذ, دونما غول أو بعبع!

١٣

السرعوب هو ابن عرس إذا ما كنتم تتساءلون!

وسرعوبنا لا يملك طباع هذا الحيوان الذي قد تجده متسللا لداخل قن الدجاج كالثعالب, لكنه يزعم بعلمه لغتـــه! كمـــا يزعم بعلمه لغة الحيوانات الأخرى!

لذا تراه جالسا القرفصاء بالساعات أمام مستعمرة للنمل, أو ملتصقا بالجدار حيث يخاطب برصا ملتصقا هنالك!

أحيانا يجالس القطط الضالة والكلاب المتشردة, والعجيـــب حقا بالأمر أن الحيوانات التي كان يجالسها لم يحدث أن نفرت منه أو حاولت الهرب!

فهل يتقن (سرعوب) منطق الحيوان كمـــا كـــان ســـيدنا (سليمان) عليه السلام؟

فضل (سرعوب) معاشرة الحيوانات على البشر, فهـــي – بحسب مزاعمه- كائنات صادقة تقول الـــذي بخاطرهـــا ولا تعرف النفاق أو الرياء أبدا!

لكنه في مرة من المرات ناقض ذلك القول, وسيأتي ذكـــر ذلك فيما بعد..

المهم أنه قضى غالب الأوقات في الإسطبل, حيـــث عقـــد صداقة متينة مع "عداء الصحراء" جواد (جروح) الأثير..

كانت علاقته بشاهر طيبة لأن الحصان "أخبره" أن ذلـــك الفتى نقي السريرة لا يعرف الإيذاء, على عكس الأمير الجميل الذي يعشش الأذى بين أركان نفسيته المعقدة!

كما أنه اعترف ذات مرة بتعلقه الشديد بالفتاة (جـــروح), فقال له:

– ألقم فمي بعض السكاكر وسأطلعك على سر!

فنفذ (سرعوب) مطلبه..

قضم العداء مربع السكر قبل قوله:

– الفتاة لطيفة جدا, ولو كنت بشرا لأحببتها كما أحـــب فرسا أصيلة ذات حوافر رشيقة!

ضحك (سرعوب) قائلا باندهاش:

– تحب بشرية؟ كم أنت غر ساذج يا صديقي!

البشر مخلوقات كاذبة منافقة, وعالمكم بعيد كل البعد عـــن عالمنا المبتذل المملوء مؤامرات وترهات وإدمان و..

– حسبك! فإن عالم الحيوان ليس بغريب عن عـــالم بـــني البشر!

– ماذا تقول؟

– سأحكي لك حكاية عن عالمنا, حكاية حقيقية, وأنـــت الحكم بها.. اتفقنا؟

– اتفقنا..

– قيل لنا عبر حكاوي الأجداد المتناقلة, بأن الغابة عاشت دهرا من الرخاء بعد ابتعاد الإنسان عنها لفترة من الزمن..

ولطالما اعتبرت الحيوانات الإنسان أكبر مشكلة تصادف الغابة , فهو يقطع الأشجار, ويلق بالقمامة , ويلوث النهر , ويقتل من اجل اللحم والفراء والدهن والزيت .. الخ , مما جعل حياة الحيوانات جحيما لا يمكن احتماله ..

وأخيرا كفّ الإنسان عن ولوج الغابة لفترة من الزمن , عقب ظهور كل تلك القوانين التي تحمي الحيوان والشجر من الانقراض, فسعدت الحيوانات بنيل حريتها واستقلالها أخيرا , وأقيم احتفال صاخب رقصت فيه الأرانب إلى جانب الثعالب!

ثم أعلنت نتائج الانتخابات في الحفل نفسه , فالحيوانات لا تضيع الوقت كما نصنع نحن معشر البشر , لكن أمرا مشابها لما يحدث معنا قد حصل معهم , فقد فاز الأسد بانتخابات سيادة الغابة كالعادة بنسبة ٩٩،٩% !

هللت الحيوانات جميعها ماعدا حيوان واحد.. التمساح !

هكذا أعلنها صراحة أمام الحيوانات والطيور والحشرات والأسد نفسه دون خشية من أحد , فقال بصوت هادر :

– هذا ليس عدلا !

تبادلت الحيوانات نظرات الاندهاش , وزأر الأسد قـــائلا بغضب :

– ماذا تقصد ؟

– أنت تفهم قصدي جيدا , في كل مرة نجري بها انتخابات تفوز أنت بنسبة غير معقولة !

– وماذا في ذلك ؟

– ماذا في ذلك ؟! انك ملك الغابة مذ رسا فلـــك ســـيدنا (نوح) على اليابسة بعد الطوفان العظيم , ولا أظن أن جدودك قد أخذوا المبايعة من جدودنا على السمع والطاعة وهم داخله وسط الأمواج المتلاطمة !

– صن لسانك وإلا احتثثته من حلقك !

– صرتم مثـــل أولاد آدم ! تنـــهبون الحكـــم وتأمروننـــا بالصمت! زأر الأسد هيجان, فأسرع الفيل يقول محاولا تهدئة النفوس :

– أرجو ألا يتفاقم الوضع أكثر يا إخـــوان , فـــنحن أمـــة متكاتفة داخل هذا الغاب رغم الصراعات وكل شيء , لكـــن فكرة التصارع على السلطة وحدها تثير الفزع ! لنحاول تجنب ذلك ولنستمر ..

– نستمر في ماذا ؟ في الهراء الذي امتد لعشرات الـــسنين ؟ كان الأسد ولا يزال ملك الغابة , فماذا صـــنع للغابـــة غـــير

التمطي والتثاؤب ؟ إن اللبوات الأربع اللواتي تزوجهن هن من يأتين له بالفرائس حبا بالله !

عاود الأسد الزئير المفزع صائحا بثورة :

– قد تماديت أكثر من اللازم أيها الزاحف الحقير , اسحب ما قلته حالا وإلا أمرتهم بتعليقك من ذيلك حتى يجدك صائدو التماسيح !

قهقه التمساح قائلا بسخرية :

– هل سمعتم ذلك ؟ لقد عقد ملك الغابة المبجل اتفاقيـــات من وراء ظهورنا , ومع من ؟ مع صائدي التماسيح من البشر !

انطلقت همهمات غاضبة من جانب التماسيح , فأدلى القرد فمه الممطوط من أذن الأسد هامسا داخله :

– ما كان عليك الإدلاء بتصريح خطير كهـــذا التـــصريح أمامهم يا مولاي!

– إليك عني يا وجه القرد ! أنا ملك الغابة ! أقول ما أشاء وفي الوقت الذي أريده!

هتف التمساح بانتصار :

– حتى كلامه صار ككلام البشر ! لقد نادى القرد بوجـــه القرد! لم يبق إلا أن ينادي الكلب بابن الكلب !

اربد وجه الأسد , فشهر مخالبه وكشف عن أنيابـــه قـــائلا بوحشية :

– أنت تدنو من نهايتك كثيرا جدا يا صاحب الحراشـــف الصدئة!

– أترون ما أعنيه ؟

– قد بلغ السيل الزبى !

– والآن صار يستشهد بالشعر !

لكن الأسد بقي يهدد بالكلام دون أن يهجـــم أو يـــصنع شيئا, وأخيرا لاحظ التمساح ذلك, فضحك بسخرية شـــديدة هاتفا :

– أنظروا ! انه يهددني تهديدات جوفـــاء دون أن يحـــرك ساكنا ! أتدرون لماذا ؟ لأنه لا يستطيع هزيمة كائن قوي الفك والحراشف مثلي !

هللت جموع التماسيح لهذا , فاحتد النمر ومعـــه الفهـــد والضبع وحتى الذئب – وقد كانوا يعتبرون أنفـــسهم حـــراس الغابة وجندها البواسل- وعوى الذئب قائلا :

– أشتم رائحة تمرد ..

زأر النمر مصححا :

– بل هي رائحة خيانة !

وواصل القرد محاولاته السلمية مع الفيـل , لكـن دونما جدوى ..

وفي النهاية رحل التمساح مع عشيرته إلى النـهر , تاركـا الاحتفال خلف ظهره مكررا بصرامة وحزم :

– الأيام بيننا يا سيد الغابة المزعوم !

و لم يجرؤ صنف حيوان على التصدي له !

أيام مرت عانت الحيوانات خلالها الأمرين ..

فقد أعلنت التماسيح تمردها , واحتلت النهر الذي كـان مصدر الماء الوحيد في الغابة, فلم يجرؤ حيوان على الدنو مـن حافته للشرب أو الاغتسال , حتى أفراس النهر صارت تعـيش خارجه !

أما عن الشجعان الذين حاولوا القتال , فقد راحوا ضـحية فكوك التماسيح !

وقد عقد الأسد مجلس غابة طارئ حضرته كافة الحيوانات, وبالطبع كان الفيل حاضرا بصفته مستشارا والقـرد بـصفته سفيرا..

أظهرت الحيوانات استياءها لما حـدث , وتمـت دراسـة حالات العطش والجرب التي أصابت صغارهم نتيجـة لقلـة الاغتسال والشرب, وفي النهاية أعلن الأسد بيأس عن استعداده

للتفاوض مع التماسيح , فقد كانوا يلعبون اللعبة في ملعبهم , والاقتراب منهم دون الهلاك أمر مستحيل تقريبا ..

تمت الموافقة بالإجماع على هذا القرار , وكالعادة انتدب الثعلب لحمل رسالة الملك إلى التماسيح , فهو يمتاز بالفطنة والذكاء والمكر كما نعلم جميعا ..

إلا أن مفاجأة سيئة نوعا كانت بانتظاره حين بلغ حافة النهر حاملا رسالة إمكانية التفاوض , فقد خرج له زعيم التماسيح بشحمه ولحمه وحراشفه ! وقبل أن ينطق الثعلب بكلمة واحدة تلقفه الزعيم المتمرد بين فكيه والتهمه !

ولما بلغ الخبر ملك الغاب , زأر حتى كلت حنجرته , وبنبرة كالهدير صرخ :

– هي الحرب إذن !

نفقت حيوانات كثيرة , ولولا معونات الماء من الغابة المجاورة لهلكت حيوانات الغابة جميعها !

وفي النهاية استدعى الأسد القرد , فذهب القرد إليه مستبشرا , إذ ظن بأنه سيتنازل أخيرا عن الملك للتماسيح عملا بنصيحته ..

لكن الأسد قال بخشونة وغلظة للقرد عندما قابله :

– اسمع , أمهلك ثلاثة أيام لإبرام صفقة مع التماسيح الأوغاد , فإما أن تجد طريقة للتفاوض كي ننهي هذه الحرب الشعواء أو ألتهمك حتى العظم والنخاع!

وتثاءب معلنا نهاية الاجتماع !

سار القرد حزينا كاسف البال على غير عادته ..

حيته حيوانات عديدة و لم يرد التحية أو يلق دعاباته المسلية ككل يوم , فقد ابتدأ العد التنازلي لانتهاء حياته في هذا الغاب.

كيف يمكن له إبرام اتفاقية صلح مع التماسيح ؟ لقد هلك الثعلب مبعوث الأسد الرسمي قبل أن يعرض الاتفاقية , فكيف يصنعون إذا ما اقترب منهم عارضا الصلح؟ يا لها من مصيبة!

وبينما هو سائر يفكر في حل لتلك المعضلة , سمع صوت نعيق خشن يقول:

– "ما أجمل قطعة الفضة خاصتي !"

نظر القرد لفوق قبل إظهاره التأفف والسخط , فقد كان ذلك العقعق – والعقعق لمن يجهله هو غراب أبقع طويل الذيل– أكثر الطيور نبذا وكذبا ولصوصية !

كان ممسكا بقطعة تبرق بمنقاره , فقال القرد لنفسه :

– على الأرجح قد قام بسرقتها من طفل تعيس الحظ !

فما إن قال تلك الكلمات حتى برقت عيناه بشدة ..

لماذا لا يرسل العقعق للتفاوض؟ لقد جرب الرسميات و لم تفده بشيء حتى الآن , فلماذا لا يعمل بصورة غير رسمية ؟

والعقعق لص وكذاب ونذير شؤم أيضا , فلماذا لا يرسله إلى التماسيح ؟ عله ينجح في مهمته بعد فشل محاولات الصلح الرسمية ذات الإجراءات المعتادة !

وهكذا نادى القرد بأعلى صوته مخاطبا العقعق :

– يا عقعق , انزل قليلا لأحادثك في أمر يهمنا جميعا ..

– أنا لا يهمني أحد , لا يهمني سوى نفسي !

انه أناني أيضا ! لكن لا بأس ..

كان الجميع على علم بمدى هيام العقعق بقطع الزجاج والخرز والفضة بالأخص , فقال القرد بخبث :

– لا بأس , يبدو وأن قطعة الفضة التي بحوزتي لن تكون من نصيب احد غيري!

فما إن سمع العقعق باسم الفضة حتى هبط من فوق الشجرة لأسفل صائحا :

– أقلت قطعة فضة ؟

– أجل , ولا أظنك تحاول الحصول عليها بغير مقابل ..

– ما الذي تريده مقابلها ؟

– إنني أشكل وفدا لإرساله إلى التماسيح !

– وما حكاية التماسيح أيضا ؟

– ألا تتابع أخبار الغابة أيها الأحمق ؟

– لا شأن لي بالسياسة !

شرح له القرد الأمر جملة وتفصيلا , فقال العقعق بعد أن اخذ وقته في التفكير :

– تبدو لي مشكلة عويصة ..

– هي كذلك ..

– ومقابل الانضمام للوفد أريد على الأقل عشر قطع فضية!

– لكن هذا كثير !

– وقطعة من مرآة وبعض الخرز أيضا ..

– ماذا عن مصلحة الغابة ؟ ماذا عن الواجب الوطني ؟

– مصلحتي تفوق كل مصلحة !

– لا بأس أيها الطماع , لك ما أردت ..

ثم قال لنفسه بنبرة خفيضة وهو يجد بالسير والعقعق يحلق فوقه :

– الطماع التعس ! إنه لا يعلم أنه وفد سائر إلى حتفه !

مرا أثناء رحلتهما بالمستنقع , فسمعا صوت نقيق يثير الغثيان ..

قال القرد لنفسه بازدراء :

– هذا صوت العلجوم !

والعلجوم – لمن يجهله– هو ذكر الضفدع , وقد كان العلجوم في حكايتنا هذه جالسا على صخرة متوسطة الحجم , وقد التف من حوله عدد من صغار الضفادع , ينصتون لحكاياته التي تدور كلها عن الشعوذة والساحرات الشريرات..

قال للصغار بصوته المتحشرج :

– في الماضي الجميل كانت الحكايات أغلبها تدور عن الضفادع ! مثل حكاية الأميرة والضفدع المسحور , والضفدع الوثاب ..

وقد كان لجدي العلجوم الأكبر شرف الجلوس على الكتف الأيسر لإحدى الساحرات اللواتي أحرقن على عامود بتهمة ممارسة السحر ! كما أن العفاريت تفضل دائما التحول إلى علجوم !

قال العقعق باستهانة للقرد :

– أرى أن نواصل طريقنا بدلا من إضاعة الوقت في الاستماع لخرافات هذا المخرف !

لكن القرد رأى غير ذلك, فلا ضير من أن ينضم للوفد حيوان يؤمن بالسحر والخرافة , فلربما ثمة فائدة من ذلك , ولكن كيف السبيل إلى إقناعه؟

حيا القرد العلحوم , وبعد عرض المسألة عليه قال العلحوم وحنكه ينتفخ :

– إذا أردت انضمامي للوفد فهنالك شـــرطان لحـــدوث ذلك..

– ألا وهما ؟

– الأول أن أصير أنا مستشار ملك الغابة وليس الفيل !

– والثاني ؟

– أن يخرج هذا العقعق من الوفد حالا !

احتد العقعق صائحا :

– وما شأنك بي يا صاحب الحنك المنتفخ كأنه ورم ؟

هتف العلحوم بغضب :

– لي كل الشأن , فأنت وأمثالك تسيئون لأمجادنـــا مـــع السحرة حين تـــدعون أنكـــم مـــن رافقهـــم في طقوســـهم واحتفالاتهم, أو عندما تزعمون أن العفاريـــت لا تـــشكل إلا على طلائعكم البهية !

– لأنها الحقيقة !

– بل إن كل ذلك مجرد كذب وتزييف للتاريخ !

– كف أنت عن تزييفه بترهاتك !

هتف القرد متدخلا بينهما :

– كفى ! حال الغاب هو ما يهمني الآن لا الصراعات الجانبية الشخصية .. أيها العلجوم إنني أوافق على شرطك الأول !

أراد العلجوم قول شيء ما بحنق , لكنه في النهاية غمغم باستسلام:

– وهو كذلك , هيا بنا ..

أثناء سير الثلاثة باتجاه النهر , توقف العلجوم عن الوثب , وبصوته اللزج المقيت تساءل حائرا :

– ماذا لو لم تنجح المفاوضات ؟ أأعود حالي الوفاض للمستنقع؟

كفّ العقعق عندئذ عن الطيران , وبحدة قال للقرد :

– لا يهمني نجاح الاجتماع أو فشله ! أريد حقي كاملا !

قال القرد لهما بسخط :

– لا تقلقا , ولكن أرجو أن تعيرا جل اهتمامكما للاجتماع ..

ثم قال في نفسه بضيق شديد :

– يا لطمعكما وجشعكما البالغ !

أحس أن وجود لص كاذب ودجال مؤمن بالخرافات لا يكفي لإنجاح هذا الوفد السائر نحو مصير لا يعلمه إلا الله , وبينما كان يفكر في ذلك الأمر , تناهى إلى مسامعه صوت يقول بحدة :

– أرجو أن تظهر لهذا الأحمق الصواب من الخطأ يا أبا منجل!

تحرك القرد إلى مصدر الصوت بين الأشجار, فأبصر أمرا بدا مثيرا للاهتمام..

إذ أبصر ظربانين يقتتلان وبينهما طائر أبو منجل يقف بهدوء واتزان – ولمن يجهل طائر أبو منجل طائر مائي طويل القائمتين والمنقار– وقد قال الظربان الأول الذي سمعه القرد يتحدث بداية :

– يا أبا منجل , من أكثرنا تهذيبا ولباقة ؟ أنا أم صاحبي هذا ؟

فتح أبو منجل منقاره الشبيه بالحقنة الشرجية كما لو كان يتثاءب, ثم غمغم بتحفظ:

– أنت الأكثر تهذيبا , وصاحبك الأكثر لباقة !

– وكيف يكون ذلك ؟

– عندما جئتماني أقرأتني أنت السلام وصاحبك لم يفعل , ولما عرضت القضية تراجع صاحبك للوراء كي لا تخنقني

رائحته الكريهة , في حين لم تكترث أنت لـذلك , وهاأنـت تخنقني برائحتك !

وفي تلك اللحظة خرجت بطة برية مـن بـين الأعـشاب الطويلة مولولة:

– يا أبا منجل, صغيري يرفض تعلم العوم في الماء..

– أخبريه أن طعامه ينتظره في الماء ..

– يريدني أن أصطاده له بنفسي ..

– أرسلي له من يخبره أنك قد قضيت بين أنياب ثعلب, ثم راقبيه كيف سيتمكن من إعالة نفسه بنفسه, وعندئذ أفرحيـه بعودتك !

هبط من بين الأشجار سنجاب مـذعور قـال بـصوت ملهوف: ولدي لسعه عقرب سام , أدركني يا أبا منجل ..

– ابحث حالا عن عشبة "أقونيطن", ثم امـضغها وضـعها مكان اللسعة فهي تتشرب السم حتى ولو كان لأفعى !

بدا القرد منبهرا بذلك الطائر الجامع ما بين الفطنة والحكمة والعلم, فقال مخاطبا نفسه :

– هذا هو ما يحتاجه وفدنا البائس بالضبط, بارقة أمل !

وعندما عرض القرد المشكلة على أبي منجل, وافق الأخـير على الانضمام للوفد ومن دون شروط أو حتى مقابل !

قبل أن يصل الوفد إلى نهر التماسيح, طلب القرد من الحيوانات الثلاثة المرافقة له توخي الحذر وعدم الخوض في تفاصيل عقيمة لا تهم ..

قال لهم والتوتر باد عليه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه:

- لا تحاولوا استفزازهم وإلا التهمونا على سبيل العشاء ! وتذكروا المهمة المنصبة على عاتقنا ..

قال العقعق بحدة :

- تذكر أنت الفضة وقطعة المرآة والخرز ..

أسرع العلجوم يهتف :

- لا تنس المنصب الذي وعدتني به, لا أقل من منصب المستشار !

في حين بقي أبو منجل على صمته ووقاره, فقال القرد لهما محتدا:

- ستحصلان على ما تريدانه من طلبات, لكن أرجوكما ركزا في موضوعنا الآن..

وانطلقوا باتجاه النهر , والقرد يدعو ربه طيلة الطريق ألا تهاجم التماسيح الوفد وتلتهمه ..

فما أن صاروا على مسافة شبر من ضفة النهر , حتى انشقت الأرض عن عشرة تماسيح على الأقل أحاطوا بالوفد

إحاطة السوار بالمعصم , وصعق العقعق قبل محاولته الإفـــلات بالتحليق, لولا أن سارع أحد التماسيح بإطباق فكيه على ذيله!

تبدى الذعر في وجوه القرد والعقعق والعلجوم , لكن أبـــا منجل بقي على صمته ووقاره كأن الأمر لا يعنيه !

صاح القرد بأعلى صوته :

– نحن وفد من ملك الغابة, وقد أتينا لعقد هدنة يا سادة..

ردّ عليه أحد التماسيح بغلظة :

– سبب كاف لالتهامكم دون انتظار !

– أرجوكم أن تتمهلوا ولو قليلا, دعونا نعرض ما لـــدينا على قائدكم العظيم ..

ارتفع في تلك اللحظة صوت عميق آت من ناحيـــة النـــهر يقول بوجل :

– فليقترب وفد الملك المزعوم ..

أزاح التماسيح الطريق للوفد , فتقدموا يقودهم التمـــساح الممسك بالعقعق كي لا يهرب , وعند حافة الماء كان زعـــيم التماسيح يريح فكه الطويل والعريض على اليابسة , في حـــين بقي جسمه بأكمله في الماء ..

هتف القرد ما أن أبصر الزعيم المتمرد:

– السلام على ملك التماسيح المبجل !

- اصمت أنت ودعني أمْعن في وفدك هذا.. ما شـاء الله ! عقعق وعلجوم وأبو منجل ؟ يا له من وفد !

قال القرد كالمنتحب :

- لم تترك لي الخيار يا سيدي مذ التهمت الثعلب مبعـوث الملك الرسمي!

صاح العقعق وهو لا يكف عن محاولات الإفلات اليائسة :

- التهموا المبعوث السابق ؟! بأية مصيبة ورطتنـا عليـك اللعنة؟!

وانتفخ حنك العلجوم وهو يقول :

- لذلك لم يكن السحرة يثقون بـالقرود إلا مذبوحـة في طقوسهم السحرية!

تأملهم زعيم التماسيح بسخرية جمة , ثم غمغم باسما :

- أسمعني ما لديك أيها الوفد !

- سيدي إن..

- اخرس أنت أيها القرد الكريه , أريد سماع هـذا الوفـد لأرى الحكمة من انتقائك له , ومن الأفضل أن تكون هنالـك حكمة ما وإلا التهمتكم جميعا !

أنت يا طائر الشؤم والخراب ! لماذا انضممت لوفد الملـك المزعوم ؟

كف العقعق عن الخفقان بجناحيه , وباستسلام قال :

– في الواقع يا سيد هذا الغاب أن سبب انضمامي للوفـد الماثل أمامك هو لرؤيتك عن كثب ! للاستزادة من حكمتـك ولرؤية ماهية القوة الحقيقية!

– وبعد ؟

– أتوجد أسباب أهم من التي ذكرها لك يا مولاي ؟ أرجو أن تقبلني جنديا من جنودك المخلصين ! اعتبرني رسـولك إلى سائر الحيوانات ريثما تتم بناء مملكتك الجديدة !

– وكم تريد مقابل انضمامك لنا ؟ قطعة فـضة ؟ خـرز ملون؟ كم الكمية التي تناسبك ؟ تكلم ولا تخجل !

– لا أبغي سوى رضاك علي يا مولاي !

– كلام جميل ومنمق !

وفغر فاه متثائبا قبل أن يقول لتابعه:

– التهمه !

وقبل نطق العقعق بشيء كان قد غاب بين فكي التمـساح الممسك به !

تبدى الرعب في وجهي القرد والعلجوم , وبملل قال زعيم التماسيح :

– أكره المتملق الطامع , والأكثر من ذلك كراهيتي العميقة للكاذب الخائن !

ماذا عنك أيها العلجوم ؟ أأنت كاذب خائن أيضا ؟

عجل العلجوم بالقول متلهفا :

– بل أنا مثلك يا مولاي , أكره الكاذب الخائن , أقسم لك !

– لماذا انضممت إذن لهذا الوفد السخيف ؟

تنفس العلجوم بعمق حتى بدا حنكه كالبالون , ومن ثم قال بوجل :

– يا مولاي أتيتك لنبوءة ذكرها جدي الأكبر لي !

– هل كان ساحرا ؟

– تقريبا ! فقد كان الحيوان المفضل لساحرة , ومكانه الدائم كان على كتفها الأيسر !

– ونعم الجد ! وعما كانت تلك النبوءة المزعومة تدور ؟

– قال لي قبل أن يموت:"إن الأسد لن يدوم ملكا لفترة طويلة, لأن فارسا أخضر ذا حراشف سيتمكن من دحره, وبذلك سيصير ملكا أزليا للغابة, وفي عهده ستشهد الحيوانات رخاء لم تنل مثله قط في عهد الأسد الظالم الجائر !"

– إذن فقد كان جدك الأكبر منجما !

– يمكنك أن تقول ذلك يا مولاي !

– إذن التهموه !

غاب العلجوم في فاه أحد التماسيح وهو يولــول , وقــال زعيم التماسيح بتؤدة وهو يتأمل وقفة طائر أبو منجل المحيرة :

– مع أني أكره الاقتباس من البشر كما يصنع الأســد, إلا أنني أعترف بمدى صدق حكمهم, ومن تلك الحكم أستــشهد بهذه: "كذب المنجمون ولو صدقوا!"

وأنت يا صاحب المنقار المضحك ؟ فيما انــضمامك لهــذا السيرك الطريف ؟

بقي أبو منجل على صمته , فقال له زعيم التماسيح بغلظة: هل أنت أخرس يا هذا ؟

أخيرا نطق أبو منجل , فقال بهدوئه المثير :

– افتح فمك يا سيد التماسيح..

– ماذا قلت ؟!

وحدجه بنظرة غاضبة وقد بدا كأنه سيأمر أتباعه بالتهامــه هو الآخر , لولا أن صمت برهة مفكرا , ثم قام بتنفيذ مطلب الطائر منه !

تأمل أبو منجل الفاه المفغور بعناية وتدقيق , ومن ثم قــال بثقة :

– منذ متى وأنت تعاني تلك الآلام يا زعيم ؟

– عن أي آلام تتحدث يا هذا ؟

– هلم وكف عن المكابرة ! أنت مريض يا سيدي , وأنا ما انضممت لهذا الوفد إلا لمساعدتك على الشفاء !

– أنت تكذب ! كيف علمت بأني مريض ؟

– مذ سمعت خبر التهامك للثعلب ! كنت أعلم بأنك ستمرض بعدها ! كما أن منظرك لا يخفى على طبيب مثلي ..

تأمله زعيم التماسيح مليا, ثم خرجت من مقلتيه دموع حقيقية, لا دموع تماسيح كاذبة كالتي نسمع عنها !

قال وهو لا يزال ينوح بأسى:

– أشعر بمغص رهيب , رهيب كالكابوس يا دكتور !

– لا بأس عليك..

– إذا تمكنت من شفائي فسأوافق بكل طيبة خاطر على التفاوض معك !

– لا تتحدث كثيرا فأنت مريضي الآن..

دنا القرد من أبي منجل , وهمس له متلهفا :

– دعنا نرغمه على قبول الهدنة ومن ثم عالجه !

التفت الطائر إليه هامسا هو الآخر بحزم:

– لا ! هو الآن مريضي وسأنفذ واجبي باتجاهه كطبيب ، ولا شأن لذلك بصراعاتنا ونزاعاتنا !

ثم التفت إلى زعيم التماسيح قائلا له بنبرة مطمئنة :

– افتح فمك وقل آه !

وبعد شفاء زعيم التماسيح وافق على الهدنة مباشرة, فعاد القرد منتصرا إلى ملك الغابة حاملا معه البشرى السارة, فحكى له الحكاية كاملة, لكنه لم يكن أمينا تماما في سردها..

هكذا أقيم احتفال ضخم نال القرد الماكر خلاله شرف نيل منصب مستشار الملك الأول , والطريف في الأمر أن الأسد قد أمر بعمل نصبين تذكاريين للعقعق والعلجوم باعتبارهما بطلين قضيا أثناء قيامهما بالواجب المقدس !

أما أبو منجل فقد عاد لمزاولة طبه وحكمته دون أن يعرف حيوان واحد ما قدمه للغابة من خدمات, وبقيت الحقيقة مدفونة حتى يومنا هذا !

١٤

ارتدت "جيترا" أزرق يلائم قميصها السماوي, شعرها طويل لكنه مقصوص يصلح للفتيان والبنات سواء..

هكذا كانت (شبابة) وستظل, وقد ظنت أن اسمها مجرد تنويع على "شباب", لكن مدام (باسينت) قصدت بها أداة النفخ الموسيقية التي كانت الفتاة تتقن العزف بها..

تبدت (شبابة) منذ اللحظة الأولى فتاة مستهترة, فخلفت ذلك الانطباع لدى الكل, وقد تمادت كل التمادي في الظهور بمظهر فتى, حتى أنها كانت تستعمل حمام المرضى الذكور! وذات مرة قاطعت استحمامهم بدخولها عليهم كما ولدتها أمها, قابضة بشكيرة وهي تغمغم ببساطة متناهية:

– اتركوا لي قليلا من الصابون!

أتت مدام (باسينت) على صوت التهليل والتصفير, فوقع بصرها على أشنع منظر رأته في حياتها المهنية بأسرها ولربما في حياتها الشخصية كلها!

كانت البنت عارية تماما, تراشق الفتية العراة بالماء والصابون! فلطمت المرأة صدرها, وهرعت كالمخبولة لتلفها بالبشكير وتخرجها جرجرة من شعرها وهي تصيح ملتاعة:

– يا للفضيحة! أين الحياء يا بنت المجنونة! تفو!

بصقت عليها وهي تواصل عصر جذور شعرها ولطمها على خديها, لكن الفتاة ظلت تضحك حتى تيقنت (باسينت) من إصابتها بالخبل..

تحبسها في غرفتها بالمفتاح حتى تتأدب, وبعد يوم تخرجها معتقدة أن البنت قد تأدبت.. ولكن وفي نفس الليلة تفاجأ بها ترقص بقميص النوم مع (داهوت) في غرفته على أنغام صاخبة منبعثة من مسجلته!

كانت (شبابة) "غلامة" بكل ما تحمل الكلمة من معاني, لدرجة أنها كانت تنادي (داهوت) دائما بالأمير المخنث! وتشبه ثآليل (ثؤلول) بمريض الايدز المحتضر! أجل! لسانها كان الأسلط وشخصيتها كانت الأقوى أو الأوقح إذا صحّ التعبير, بعض الفتية أعجبوا بجرأتها وجميع الفتيات نبذوها لسوء أخلاقها..

ثم هدأت طباعها قليلا واستقرت, وإن لم تكف عن ارتداء ثياب الفتيان, لكنها تمكنت من مهادنة (ناردين) لأنها أحبت لطفها وخلوها من خبل البنات السخيف, ولم تترك فرصة لم تسخر بها من نادي "الآنسات الحافيات" ومخاوف (زغدة) وشره (قبرة) غير الطبيعي.. لكنها احترمت كثيرا علاقة

(ضارية) المتينة بلؤلؤة, فقد وهبت الأولى حياتها وسعادتها كلها من أجل الثانية, أخت وصديقة مريضة طيلة الوقت لا تبارح الفراش..

حاولت (ناردين) بلطفها المعهود تعليم الفتاة الخشنة طباع الفتيات, لكن (شبابة) أخرجت لسانها كمن يستفرغ قائلة بازدراء:

- إنهن فضيحة! يبكين بمجرد ظهور البرص على الجدار, ولا يكففن عن النميمة والنق كالدجاج!

أفهمتها (ناردين) بصبر أن تلك الأمور ليست جل وظائف الأنثى, فتبسمت قائلة بسخرية:

- بالطبع! إنها تكنس وتطبخ وترقد في السرير خاضعة لغرائز الرجل البهيمية!

احمر وجه (ناردين) مدركة أن صديقتها الجديدة ما هي إلا عضوة في جمعية حقوق المرأة, لكنها لم تفقد الأمل فيها تماما..

وفي حفل ما قبل زواج (أزوريت) اضطرت (شبابة) لارتداء تنورة حليبية ذات كشاكش على الأكمام استجابة لتضرعات العروس المقبلة, ولما وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها بعد أن فرغت (ناردين) من تزيينها ووضع مساحيق التجميل لها رأت شيئا عجبا..

- "واو! أنت فاتنة حقا يا فتاة!"

قالتها (ناردين) منبهرة.. حقا كانت (شبابة) فاتنة, تبرجها جعل منها أنثى حقيقية, لم تكن ضاجة الأنوثة من ناحية الصدر أو القوام, لكن وجهها بدا لمسة فنية من لمسات الجمال المتقن, أنفها متناسق وعيناها تبدوان كمياه البحـــر الـــشفافة, وقـــد وضعت لهما (ناردين) كحلا, وصبغت لها شفتيها بطلاء وردي باهت متلألئ..

صالت في الحفل وجالت متفقدة ذاتها أمام رفاق المـــسرح, فوجدت انبهارا في العيون ودهشة, وتمكنت بزاوية بصرها من رؤية الأمير الجميل يسقط كوب العصير على ملابسه والذهول يملأ ملامح وجهه فتبسمت..

١٥

أصغر مدمن سابق ومريض حالي بالمصح, أسمته (صفير) متأخرا عندما اكتشفت ولعه بالتصفير وهو يصلح أو يفكك الأجهزة القديمة, ولولا صفيره في كل مكان حتى في الحمام لأسمته "عبقري"!

فقد أصلح لباسينت المذياع رغم عتقه موفرا عليها مبلغا من المال, فابتاعت له بعض اللعب التي يحبها عرفانا منها بجميله..

أرادت كسب ذلك العبقري الذي يوفر عليها عناء حمل الأجهزة المعطلة وأخذها إلى دكان تصليح صاحبه جشع, فقد أظهر (صفير) براعة مثيرة للتساؤل بشأن مستقبله..

– "لو أن أهله تنبهوا له لأدخلوه الجامعة كي يتخرج مهندس الكترونيات بدل الإدمان الذي ضيع مستقبله!"

كانت تردد ذلك بحسرة وهي تراقب النابغة الصغير نوعا يفكك لعبه مطالعا تركيبها باهتمام ذكي, ذات مرة رأته يفكك ساعة الحائط فقالت له غير مبالية:

– أعد تجميعها بعد أن تفرغ!

فيومئ برأسه مصفرا..

تاريخه مع إدمان (R.D.٦) غامض, ثمة شك بأن والدته كانت مدمنة فقلدها في إدمانها ليسقط بالمحظور.. كلامه قليل

وتصفيره كثير, يصفر ألحانا غير معروفة ابتدعها عقله, والبنات يقصدنه لإصلاح أغراضهن من مسجلات ودمى, أما الـشبان فيطلبون منه جعل أسلحتهم المزيفة التي يلهون بها أحيانا حقيقية أو شبه حقيقية!

ذات مرة انصاع لتوسلات (بلحة), فزاد من قوة الزنبرك في مسدسه, وصنع له سهما خشبيا بدل طلقة الشافطة المطاطيـة, وعندما خرجا لتجربته صوّب (صفير) السلاح الجديـد نحـو جذع شجرة وضغط الزناد بعد إحكام التصويب..

انطلق السهم لينغرز في الجذع, فتهلل وجه (بلحة) متناولا السلاح الخطر بحذر من قبضة (صفير) قائلا له:

– أنت عبقري يا بني!

لم يبال (صفير) بكلامه, كما لم يبال بعواقـب اختراعاتـه الوخيمة, كانت شخصيته غير مبالية, واهتماماته متعلقة بتركيبة الأشياء فحسب..

انقلبت حياته رأسا على عقب لدى ابتياع (أزوريت) لـه دمية بالحجم الطبيعي في عيد ميلاده..

وفي غرفته الجديدة المحتشدة ألعابا قام بتفكيك الدمية, وكما يصنع الجراح مع مريضه ابتدأ (صفير) عملية معقدة من الفـك والوصل محولا لعبته الجديدة إلى فوضى حقيقية.. كان يطمـح لشيء مجهول, شيء حقيقي يفاخر به..

كان يضع التروس الجديدة من ساعات قديمة وأخرى جديدة بين أضلع الدمية, ثم زودها بمولدات وأسلاك سياراته التي يتم التحكم بها عبر جهاز تحكم عن بعد..

اشتغل شهرا كاملا كي ينجز تحفته الجديدة والعجيبة, وقرر في ليلة من الليالي تجربتها..

أخرج جهاز تحكمه الجديد المزود بسبع بطاريات من الحجم الكبير متأملا دميته, ولكي يخفف من التوتر المعتمر في نفسه ابتدأ التصفير مشغلا الجهاز..

وهنا نهضت الدمية ببطء, اعتدلت فوق السرير ثم نهضت, تأملها بسرور مندهش محركا عصا التحريك الضئيلة, فبدأت الدمية العجيبة بالمشي وكأنها بشرية! تصاعد صوت تصفيره المتحمس وهو يراقب ثني جذعها, جلوسها, وقوفها, كما لو كانت إنسانا آليا يابانيا من المستقبل!

بدا (صفير) فخورا كأب يراقب طفله يخطو خطواته الأولى, فهمس محاولا ألا يجن من شدة الانفعال:

– (صفير)! لا, بل (صفرد)! سيكون اسمك (صفرد)!

كانت البداية سرية بشأن اختراعه, فلم يكاشف به أحدا..

كان يقضي جل وقته معتزلا داخل الغرفة برفقة دميته, يحركها ثم يفككها محاولا تطويرها وكأنه يسعى لجعلها بشرية أكثر.. وذات مرة كان يجالس الدمية مطلقا العنان لتصفيره, فخطرت له فكرة مسلية..

حلب جهاز التسجيل الذي يتسع لأشرطة الكاسيت المنمنمة, وظل طيلة اليوم يصفر بشفتيه أبرز الألحان التي تروق له, وبعد أن فرغ قام بتفكيك المسجلة وابتدأ عملية فك رأس الدمية كي يركب الجهاز داخله..

وفي نفس اليوم فرغ من عمله, وبإضافة زر جديد لجهاز التحكم عن بعد صارت الدمية تطلق صفيرا مسجلا جعله يتواثب كالقرود فوق تخت السرير صارخا:

– فعلتها!! فعلتها!

ثم خطرت له في تلك اللحظة فكرة مخبولة أخرى, فزار (شاهر) على غير العادة طالبا منه الذهاب معه إلى غرفته, دهش الأخير لتلك الدعوة غير المسبوقة لكنه نفذها عن طيب خاطر..

ومعا وقفا قبالة الدمية و(صفير) يهمس مسيطرا على انفعالاته:

– سمعت أنك رسام بارع..

– لست بتلك البراعة..

– أريد منك تحويلها إلى نسخة طبق الأصل مني! الوجه! العينان! الأنف! وحتى الشعر!

– لكن لماذا؟

– افعل وسأظل مدينا لك مدى العمر..

تفكر (شاهر) هنيهة, ثم نطق قائلا:

- أفعلها مقابل خدمة.. أريدك أن تصنع لي يدا مسخية من المطاط!

- ماذا؟ لماذا؟!

- أنا بحاجتها لأمر ضروري يخصني, اصنعها وسأنفذ طرفي من الاتفاق..

- وهو كذلك!

كادت الدمية تصيبه بجنون العظمة, وقلت مجالساته مع رفاقه في غرفة الطعام, وقلما يغادر غرفته وهو مستحم, وصار يطرد من يجيئه طالبا منه إصلاح شيء, لكنه كان يخرج على مضض لإصلاح جهاز ما بطلب رقيق من (أزوريت)..

وعند عودته يقوم برفع يده بإشارة تحية للدمية التي بدت تشبهه فعلا, حتى أنه قام بإلباسها ثيابه! قائلا لها بسرور:

- أرجو ألا أكون متأخرا على عزيزي (صفرد)!

هكذا ظل الحال حتى مقدم اليوم الذي هدأ به قليلا وفترت حماسته بعض الشيء, فخبأ (صفير) دميته في صندوق عريض, وقبل إقفاله غمغم بشفقة طابعا قبلة على جبهتها:

- سامحني أرجوك يا (صفرد)!

وفيما بعد نسى أمر الصندوق الذي وضعه أسفل سريره..

لم يتذكره إلا بعد مرور شهر تقريبا, فاستخرج الصندوق بجزع وكأنه ينبش تابوتا بداخله شخص مدفون وهو على قيد الحياة!

كانت الدمية مغبرة, فاغرورقت عيناه بالدموع وهو يهمس ملتاعا:

– سامحني يا (صفرد)! سامحني يا صديقي!

ولإصلاح الغلطة الرهيبة التي قارفها بحق دميته, قرر أن يجعل للدمية حياة خاصة بها, بلا جهاز تحكم عن بعد!

هكذا باشر العمل لأيام امتدت أسابيع, كانت مهمة صعبة تأرجحت ما بين الفشل والنجاح, وظل على تلكم الحال شبه الميئوس منها مدة طويلة..

ثم تناسى الموضوع لفترة وطد خلالها علاقته بوجيهة, حيث كانت تمتلك في غرفتها تلفازا ذا صورة مشوشة الإرسال سارع بإصلاحه لها, فتبسمت قائلة لما تبدت لها الصورة الجديدة حسنة الإرسال على الشاشة:

– هذا فتى ينفعنا أخيرا مثل (شاهر)!

فهي لم تكن تستغني عن خدمات (شاهر), وبالتالي أدرك (صفير) أنها مسرورة منه ما دامت قد شبهته بشاهر..

وذات ليلة دخل غرفته بعد مشاركته الجميع الطعام, فقد بدأ يتحول إلى كائن اجتماعي, حتى أنه خرج للمزرعة كثيرا, وزار الإسطبل وأطعم الحصان, وساعد (شاهر) و(هدهد) قليلا, حتى أنه شاركهما طعام الغداء..

بدا متعجبا من مسألة تشاركهما غرفة الحارس, لماذا (شاهر) دونا عن غيره؟ ومع من؟ مع (هدهد) القاسي صاحب الطباع الخشنة؟

حتى أثناء الغداء بدا (هدهد) متبسطا, كان يقهقه لمزحات (شاهر), فأدرك (صفير) أنهما أصبحا صديقين!

بالطبع كان يسمح لشاهر بدخول غرف المصح والخروج منها وقتما يشاء, فهل كان بياته في غرفة الحارس اختيارا منه هو؟

للمرة الأولى يفكر (صفير) بغير تصفير وبغير أنانية وبغير الأمور المتعلقة بألعابه المبتكرة, أو حتى دميته (صفرد)..
دلف غرفته مهموما, فوجد كل شيء على حاله.. كل شيء على حاله! لكن.. أين الدمية؟

تلفت ذاهلا ليجدها جالسة على المقعد أمام المرآة! فتلون وجهه وذاكرته تؤكد له قيامه بتمديدها على سريره قبيل الخروج, فصاح:

- هذا مستحيل! ماذا تصنع هناك؟!

بدا ذاهلا, غاضبا, ثم تلاشى الذهول والغضب ليحل محلهما خوف شديد.. لقد غضب لأنه افترض أن أحدهم دخل غرفته في غيابه وقام بتحريك الدمية كي يعابثه..

لكن ماذا لو أن الدمية تحركت من تلقاء نفسها؟ هذا مستحيل, فقد حاول مرارا تنفيذ ذلك الحلم لكنه فشل..

قرر نسيان الأمر, فلابد وأنها مزحة ثقيلة من (داهوت) أو (بلجة).. لا شك في ذلك..

لكنها كانت البداية فقط.. فبعد يوم من تلك الحادثة, اعترضت (غصون) سبيله والغضب باد في محياها الجميل..

تأملها منتظرا بملل طلبها منه إصلاح شيء ما, لكنها فاجأته بصفعة قوية على وجهه!

– "يا وغد يا صعلوك!"

تحسس خده بدهشة عارمة, فصرخت في وجهه وأطرافها ترتعد غضبا:

– وأنا التي حسبتك مهذبا! ماذا كنت تصنع في غرفتي أيها المنحرف في الليلة الماضية؟!

– أنا لم..

– إخرس! هل أخبرت أحدا بما رأيته؟

- لكنني لم..

نفخت الهواء بصبر متمالكة نفسها, ثم همست بشبه رجـــاء وبتؤدة:

- اسمع, آسفة لأني صفعتك, لكن.. لا تخبر أحدا أرجوك, اتفقنا؟

كانت الدهشة تغزو تقاسيم (صفير), وظل محتفظا بدهشته تلك حتى بلوغه غرفته..

هناك وجد (صفرد) في مكانه, فاحتقن وجهه وهو يخطـــو باتجاه الدمية قائلا بحدة:

- تتسلى بي يا ابن الملعونة؟

ثم صفع الدمية صفعة قوية قبل إرقادها على بطنها عازمـــا بأن يترع أسلاكها ويريح نفسه..

لكنه لم يفعل.. شعور موهن خالجه وهو يتأمل العمل الذي لطالما افتخر به, فهل يدمره بتلك البساطة بسبب مزحة سخيفة أعدها واحد من إخوة الإدمان؟

فقرر أن يتريث ويراقب الدمية..

مرت الأيام و(صفير) مواظب على الـــدروس والانـــضمام للبقية على مائدة الطعام, ولم يحدث أن تغير شيء..

لم يزل فكرة أن دميته تجول بمفردها عن رأسه, أراد التأكد من حقيقة ذلك, لكن الدمية اللعينة خيبت أمله, ومع مرور مزيد من الأيام ابتدأ يقتنع بأن الأمر لم يعدو كونه مجرد دعابة سمجة, كما أن شعورا بخيبة الأمل قد خالجه..

إلى أن أتى يوم كان يجالس به (شاهر) في الإسطبل, وقد عكف الأخير على تنظيف الحصان وهو يصغي لثرثرة (صفير) باسما عندما توقف بغتة عن العمل رافعا رأسه..

نظر (صفرد) بدوره إلى بوابة الإسطبل المفتوحة على مصراعيها, فأبصر (ضارية) واقفة هنالك والغضب يتأجج في وجهها!

– "أهلا!"

قالها (شاهر) بود, لكنها تجاهلته مخاطبة (صفير) بقولها:

– ماذا كنت تفعل في غرفتها؟

– غرفة من؟!

– غرفة من؟ الآن فقط أدركت أنك جبان! لقد كان أنت! والتصفير كان من شفتيك!

– أنا..

– أيها الوغد!

وخرجت ووجهها محتقن من شدة الغضب, فتأمل (شاهر) صاحبه متسائلا:

– ما الحكاية؟

عضّ (صفير) شفته السفلى قبل أن ينطق بمرارة:

– فعلها الحقير مجددا, لكنني سأدمره هذه المرة!

وخرج راكضا بسرعة قاصدا غرفته.. فما إن ولجها حتى اكتشف اختفاء (صفرد)!

ناداه باسمه وكأنه سيستجيب وهو يبحث عنه في كل ركن وزاوية من الغرفة, وبعدها خرج يهرول كالمجنون حتى التقى بوجيهة التي سارت حاملة بعض الثياب المطوية, فاستوقفها متسائلا بلهفة:

– أرأيت (صفرد)؟

– من؟!

– دميتي!

انبعث صوت طقطقة من حلقها مدمدمة بازدراء:

– اخجل من نفسك! في العشرين من عمرك وتلهو بالدمى كالبنات الصغيرات؟!

تركها مواصلا هرولته وذهنه محتشد بخيالات لا حصر لها: "ماذا كنت تصنع في غرفتي؟" "ماذا كنت تصنع داخل

غرفتها؟" "لم فعلت ذلك؟" "لم صنعت ذلـــك؟" "أنـــت يـــا (صفير)؟ أنت.."

توقف هنيهة قبل أن يهمس لنفسه مرتجفا:

– يجب أن أجده قبل أن يورطني بمصيبة جديدة!

١٦

(ضارية) البنت القوية ذات الملامح القاسية طفيفة الأنوثـــة التي أتت بعد (لؤلؤة), والتي أخذت على عاتقها رعاية (لؤلؤة) طريحة الفراش, لا تخرج ولا يدخل عليها سوى فئة قليلة مـــن البنات والممرضات..

لا أحد تفهم سر الصداقة العجيبة والمتينة التي توثقت بـــين الاثنتين, وحدث ذات مرة أن لَمّح (داهوت) لبلحة ولثولـــول بسخرية جامحة أن تعلق الفتاتين ببعضهما لا يخلو مـــن ريبـــة, سألاه عما يقصده فغمغم متهكما:

– أخشى تعلقهما ببعض إلى حد الزواج!

تبسما مندهشين, الواقع أن تلك الفكرة راودت الأغلبية من قاطني المصح, حتى أن (أزوريت) سألت ببسمة محرجة (ضارية) لما جالستها:

– كيف (لؤلؤة)؟

– تتحسن..

– ألا يمر يوم دون أن تريها؟

– إنها صديقتي الوحيدة..

– ألست صديقتك كذلك؟

فتلوذ (ضارية) بالصمت..

- "ألا يروق لك فتى معين؟"

سألتها (أزوريت) فردّت عليها (ضارية) بخشونة لا تناسب أنثى:

- لا..

- ولم يا (ضارية)؟

- لأنهم أوغاد حمقى..

- أيشمل تعميمك زوجي؟

هزّت رأسها قائلة بلامبالاة:

- قلت رأيي وأرجو أن تحترميه..

- إذا ظل هذا رأيك فقد لا تتمكني من الزواج..

رسمت بسمة مستخفة على شفتيها الغليظتين مغمغمة:

- هذا آخر ما يشغل بالي!

- من المفترض أن يكون أول ما يشغل بالك ككل فتاة طبيعية..

- إذن أنا لست طبيعية..

- لم أقل هذا وإنما..

قاطعتها الفتاة الخشنة بضجر:

- أنا من أقول ذلك عن نفسي ولا ألق بالا لأحد!

اكفهر وجه (أزوريت) من وقاحة الفتاة, لكنها بدت باسمة متماسكة وهي تقول لها بلطف:

- وعندما تتزوج (لؤلؤة)؟ أنت لن ترعيها مدى العمر؟

تلون وجه (ضارية) وهي تهتف بسخط:

- (لؤلؤة) لن تتزوج أبدا ما دامت تحتضر.. أليس كذلك؟

و(لؤلؤة) كانت ترحب بصداقة (ضارية) الأخوية لها منذ سقطت أسيرة الفراش اللعين..

حقا لا يوجد الكثير مما يقال عن (ضارية), كانت كالقديسة بالنسبة للؤلؤة, تسهر على رعايتها وتحميمها وإطعامها ومسامرتها كي لا تضجر, أحيانا تحملها وتضعها على مقعد في الشرفة كي تستنشق الهواء المنعش, وتجالسها لساعات طوال, ثم تفارقها لجلب الطعام..

وعند حلول الليل تنام معها في نفس السرير, وأحيانا تغني لها حتى تنام..

كانت (ضارية) قديسة..

لكن (لؤلؤة) اعترفت في قرارة ذاتها أنها لا تستحق شفقتها حتى..

١٧

ذات مرة قام بأرجحتها قليلا قبـــل أن يوقفهـــا, فهتفـــت معترضة:

– لم توقفت؟

– (ظلال) أنا..

– أنت ماذا؟

– أنا أحبكِ!

قالها ووجهه متعرق حتى زالت كل المساحيق التي وضـــعها على ندبته القبيحة, فتلفتت بصمت.. لم تخبره أنهم مجرد مرضى في طور النقاهة, ولم تهزأ منه ومن ندبته رغم الإغراء الواقع في نفسها تلكم اللحظات, الحقيقة أن الأمر أغبطها قليلا فقررت أن تتسلى بعواطفه..

هكذا ردّت عليه هامسة بعينين مسبلتين:

– استغرق منك الأمر مدة طويلة.. وأأسفاه!

– على ماذا؟

– قلبي ملك لغيرك.. آسفة يا (بلجة)!

كان الغرور صفة رئيسية من صفات (ظلال) الحسناء, وربما كان لها بعض الحق في غرورها, فهي هيفاء الجسم ذات شـــعر

متموج وأنف دقيق وشفاه أدق, كانت ترنو للكـــل بعيـــنين غامضتين تبعثان بسحر مشوق, وحديثها ذكي لا يخلـــو مـــن دهاء الإناث الحاذقات..

لم تكن كذلك يوم أتت أول مرة, بل إن قلبها تعلق نوعـــا ببلحة, مرضى الإدمان الذين لا زالوا بضعفهم قبـــل تماثلـــهم للشفاء..

إلى جانب غرورها كانت (ظلال) غيورة, ولأنها كـــذلك فقد قررت تحويل غرفتها إلى أجمل غرفة في المصح بعدما رأت التنسيق الدقيق والبارع لغرفة غريمتها (ذهب)..

الواقع أن لها ذوقا فاشلا مخالفا لمخيلتها, فقد كانت الغرفـــة التي في مخيلتها أجمل من تلك التي جهزتها بنفسها, أي أنها تملك ذوقا في المخيلة فحسب, ولكن لدى التنفيذ على أرض الواقع..

وعندما تلقت عرض (ذهب) الخفي بالانـــضمام للنـــادي السخيف لم تتردد, كانت تكرهها, لكنها كذلك معجبة بهـــا وبتصرفاتها القريبة من تـــصرفات الارســـتقراطيات, فقـــررت الالتصاق بها والتعلم أكثر..

علمها الغرور احتقار الآخرين, وبخاصة (قبرة) التي كانـــت تنهشها بلسانها نهشا كلما رأتها تأكل كبقرة جائعة, منظرهـــا وهي ملطخة الشفاه بالكاكاو بدا مبتذلا ومثيرا للقرف لأقصى حد..

وهناك (حلزون).. يا له من اسم ويا له من مظهر! وكـــأن فتى معاقا ينقصها, ماذا عن (ثؤلول) المقرف؟

وأخيرا (بلحة), الفتى صاحب الندبة القبيحة.. رباه! كيف تتخلص الفتاة من العلقة النتنة؟ منظره بالقرب منـــها كفيـــل بإصابتها بالصداع وأعراض القيء..

ثم تنظر متأملة, فتجد بعضهم غير منفر إلى تلك الدرجـــة, فهنالك (داهوت) الجميل, يتصرف كالأمراء تماما, هندامه أنيق نظيف, ومظهره رائع حين يمتطي الجواد..

و(شاهر), قوي لا يخلو من وسامة, أحيانا تسرح في منظره الآسر وهو منهمك بتنظيف الحصان ومـــساعدة الآخـــرين في همومهم بإيثار..

وبين الأمير الجميل والعامل القوي تسرح بهـــا المخـــيلات العجيبة, فترى نفسها برنسيسة مخطوبة للأمير, لكنها تعـــيش حكاية حب حتى النخاع مع سائسه!

أظهرت (ظلال) تفوقا ملحوظا في اللغة الفرنـــسية, أرادت تعلمها وبشدة فهي لغة مدام بوفاري التي استعارت روايتها من مكتبة (حلزون) المقعد, لم تكن قارئة بطبعها لكنـــها أحبـــت تغذية مخيلتها ببعض التفاصيل التي تحبها, وعندما تطالع كانـــت تتخيل بأكثر مما تقرأ, متخيلة نفسها مدام (بوفاري) بكل الحب والجمال والخيانة.. تدريجيا وجدت نفسها تحلم بالشابين, لكل

واحد صفاته الخاصة والأسرة, لو كان الأمر بيــدها لــصنعت كمدام (بوفاري) تماما, تتزوج (داهوت) وتبدأ علاقة كــالحلم مع (شاهر)!

يا له من طموح يراود فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها!

لكن طموحها الخيالي لم يتوقف عند حد, فهاهي ذي تفكر بأمر جديد وغريب.. ماذا عن زوج (أزوريت) الطبيب؟

رأته مرة واحدة واقفا يحادث زوجته, كان وسيما أشــيب الفودين, يتمتع ببنية سليمة ودماء الرجولة الحــارة تتــدفق في عروقه, كما أنه متحدث بارع ومرح, لا يهرف بما لا يعلــم كمعظم الأغبياء من مرضى المصح..

ولما راودت ذهنها صورة خاطفة سريعة للممرضة الرقيقــة تبسمت هامسة لنفسها باستخفاف:

– لتجد لنفسها رجلا آخر فهي لا تستحقه!

هكذا وبكل بساطة كانت تطلق الأحكــام جزافــا دون مراعاة لمشاعر أحد وبأكبر قدر من الاستخفاف, كانت فكرتها المتكونة حول العالم أنه يتألف من الأثرياء الذين يحتفلون طيلــة الوقت..

وألا شواغر لفقير أو محتاج, وقد كانت تــزدريهم حقــا, وأشنع كوابيسها أن يحل بها ما يحل بهم..

١٨

إذا كانت (ظلال) متكبرة ومغرورة في العلن فغصون مثلها لكن في السر.. كانت حاذقة لا تجاهر بمشاعرها الحقيقية, تمنح من تكره أعذب بسمة, وتمد يد العون لمن تريد تحطيمهم راسمة خطة ذات أبعاد مستقبلية مضمونة النتائج!

عندما انضمت لنادي (ذهب) وضعت في رأسها فكرة معينة لم تحد عنها بتاتا, أرادت جعلها خاضعة لإرادها هي, وكم من مرة أشارت عليها – بلطف- أن نغير من هذا أو نفعل ذاك, فكانت (ذهب) تستجيب بحماسة منقطعة النظير لأفكار العضوة الألمعية, غير مدركة أنها في قرارة نفسها تسخر منها..

كانت لغصون فتنة خاصة, فهي إلى جانب جمالها مغرية لأقصى حد, وقد كانت أجرأ الفتيات في اللبس لكنها ألبقهن بالتصرف ظاهريا..

كانت ترمق الفتيان بعيون الرغبة, تحلم بكل واحد منهم متخيلة أسلوبه الخاص مع الإناث في المعاشرة, حتى (حلزون) المسكين تخيلته يحاول مغازلة أنثى وهو على مقعده الكئيب!

في غرفتها وفي أكثر الليالي الباردة تقف بغير احتشام أمام المرآة متخيلة نفسها أكثر إثارة, راودها اشد الأفكار عجبا بشأن الحمل, فكانت تتخيل بطنها متكورة من أثره, وعلى

عكس أكثرهن وجدت ذلك أكثر جمالا وأشد إغراء بالنسبة لجسد أنثى!

خرجت ذات يوم من غرفة (ذهب) بعد اجتماع خاص بالنادي, يمكن للكل معرفة ذلك من قدميها الحافيتين, فوجدت نفسها ضائقة بعض الشيء, فكرت, لم لا تخرج قليلا لتنشق الهواء؟

كانت تمقت المزرعة مقتا غريبا, لم تحبب جو الطبيعة الذي بدا أقرب للنفي بالنسبة لها.. لماذا لا يختلطون بالناس؟ لماذا لا يمضون مزيدا من الوقت مع الأصحاء؟

والجميع في ملهاة عن تلك الأفكار, لا يحسبون حسابا لأي شيء, إنهم أغبياء حمقى, ألا تراودهم ذات الأفكار؟ ألا يخشون على مستقبلهم من الضياع مجددا؟

ذكرياتها مع الإدمان مؤلمة, والدتها انغمست به كي تنسى عذاباتها مع والدها المدمن أيضا, ذاك الوالد الذي لم يكف ليلة واحدة عن دخول غرفة ابنته والاعتداء عليها, حتى دفعها هي الأخرى في هوة الإدمان الجهنمية, مستخدمة أسلوب النعامة في دفن الرأس داخل الحفرة هربا من الخوف والخطر المحدق المروع! ظلت تفكر وتفكر حتى مالت الشمس الحمراء في رحلة الغروب الأزلية, وعندئذ وجدت السكينة طريقا لفؤادها, وببسمة واجمة قالت لنفسها:

– لا بأس, أعرف كيف أتدبر أمري..

ولأنها تعلم, سقطت أول ما سقطت مع (داهوت)!

استسلمت له في حفل (أزوريت), ثم صارت تسلم نفسها له أغلب الليالي محاولة إقناع نفسها أنه يحبها..

ظلت العلاقة سرية, حتى استيقظت ذات ليلة لتجد شخصا يراقبهما متسترا بالعتمة مطلقا صفيرا مألوفا!

- "(داهوت)! استيقظ!"

تجاهلها الأمير الجميل متقلبا في فراشه, فالتفتت صوب ذلك الشخص صائحة به بنبرة مختنقة:

- "من هناك؟ اهو أنت يا.."

لكنه لاذ بالفرار قبل أن تقول أو تصنع شيئا, فعاودت وضع رأسها على الوسادة مجددا وأفكارها المبلبلة تتلاطم بين ثنايا عقلها دونما هوادة..

١٩

- "أريد الانضمام إلى نادي الآنسات الحافيات!"

كان منظر (قبرة) مثيرا للشفقة, فهي ممتلئة ذات شفاه ملطخة بالحلوى طوال الوقت, و(وجيهة) تصفها بالحيوان القذر لكثرة الفتات وبقع الزيت على مريولتها..

اعتقد الجميع أنها شرهة بطبيعة الحال, لكن الفتاة وجدت في الطعام حلا لكل مشكلة مستعصية تمر بها, منذ الصغر كانت تأكل بنهم إذا خافت أو أحبت, وعندما وجدت دورتها طريقا لجسمها الممتلئ التهمت نصف درزينة من ألواح الشوكولاتة بجنون وكأنها حسبته الموت آت, كانت مصابة باكتئاب لا علاج له..

عندما حضرت للمصح كانت كالغصن الهش, نحيلة تماما وشاحبة, فما إن تماثلت للشفاء حتى تحولت إلى حيوان نهم أكول, فانقلبت للبرميل الحالي الذي تتنقل به!

الفتيات يسخرن منها, لكن (ناردين) قالت لها ذات مرة أنها صديقتها وبأنها تحبها, ووجدت (قبرة) نفسها متعلقة بصديقتها إلى حد الاختناق! حقا كانت (قبرة) متعبة, كذا فكرت (ناردين), لكن طيبة قلبها تشفع لها كل تصرفاتها المقززة..

لم تحتفظ (قبرة) بسر واحد بين تجاويف رأسها, أسرت بكل صغيرة وكبيرة لناردين, ولعل اخطر سر لما كاشفتها بميلها الشديد اتجاه (شاهر)!

بالطبع تضايقت (ناردين) من الأمر رغم مدى تفاهته, فقبرة ليست ندا لها أو لغيرها, ومع مرور الوقت ابتدأت بالإشفاق عليها أكثر, حتى أنها ذات مرة أخذت تمشط لها شعرها الخشن أمام المرآة هامسة بأذنها بابتسامة:

– حتى تعجبي (شاهر) أكثر!

فتتورد وجنتا الفتاة خجلا, فتزيد شفقة (ناردين) وتعلقها بها..

في الدروس تحاول (قبرة) الجلوس قريبة من (ناردين) كي تغش منها, وفي المساء تعاونها الأخيرة في حل الواجبات, بدت الفتاة ذات استيعاب بطيء وتعثر في التعلم, والحياة منذرة بالعواقب وكثرة المشاكل..

لكن (قبرة) لا تدر عما يدور حقيقة في العالم, ولو سألتها عن أقصى طموحاتها لقالت بلهفة وهي تلعق شفتها السفلى بلسانها من بقايا القشدة:

– أريد الانضمام إلى نادي الآنسات الحافيات!

لعلها كانت أجرأ خطوة قامت بها الفتاة التي تهوى الأكل, فقد دنت بخجل من (ذهب) وبتردد همست:

- إذا نفذت الشرط..

تأملتها (ذهب) مستخفة, وبسخرية قالت لها:

- ماذا؟

- إذا نفذت شرط الانضمام للنادي فهل..؟

- طبعا طبعا!

وتبسمت مفكرة.. سيكون ذلك مسليا في الواقع, وغمزت لصديقتيها..

ركضت (قبرة) والبشر متبد في وجهها, فقهقهت (ظلال) قائلة:

- عسى ألا تسحق شابا بقدمها الثقيلة كفيل!

- من قال أنها ستجد من يوافق على مطلبها السخيف؟ هي منبوذة تماما من جميع الفتية!

- ربما على سبيل التسلية يوافق أحدهم..

- تصير كارثة حقة, ونصير ملزومات بضمها!

- يا له من كابوس! مستحيل أن نفعل!

لم يساورهن شك بخيبة أمل الفتاة المنتظرة, حتى وإن كان الأمر لا يعدو مجرد طرفة, لن يقوم بها أحد لأن الفتية قد غضوا الطرف عن (قبرة) منذ الوهلة الأولى..

ولكن في اليوم التالي وبينما كانت فتيات النادي الـثلاث جالسات يثرثرن, فوجئن بقبرة تدخل متهللـة ويـدها تـشد (شاهر) من ذراعه!

احتقن وجه (ذهـب), وبدهـشة غمغمـت (غـصون) كالمأخوذة:

– ما هذا؟

ابتسم (شاهر) مداعبا مؤخر عنقه بأنامله, في حين صاحت (قبرة) بلهفة طفولية:

– وافق (شاهر) على الخضوع! وسأنضم للنادي أخيرا!

تساءل (شاهر) وهو لا يكف عن الابتسام:

– ما المطلوب مني؟

– فقط تمدد هنا..

وصنع كما طلبت, فقامت بوضع قدمها المكـتنزة علـى صدره برفق, قائلة بعجلة ووجهها يكاد ينفجـر مـن شـدة احمراره:

– باسم عضوات النادي الجميلات أعلنك حارسا علي!

– وأنا سعيد بهذا الشرف!

كان يهم بالنهوض عندما هتفت (غصون) فجأة:

- هذا لن يكون..

تأملها الجميع مندهشين, فصاحت بلهجة المنتصر مخاطبة (ذهب):

- ألا ترين؟ لا يحق لها استخدام القسم مع حارس استخدمته إحدانا سابقا, عليها إيجاد شخص جديد!

اكفهر وجه (قبرة) متسائلة بتيهان:

- ماذا تعنين؟

أسرعت (ظلال) تقول باشمئزاز شامت:

- (ذهب) اختارت (شاهر) حارسا عليها قبلا, لذا يتوجب عليك إيجاد شخص آخر غيره!

ونظرت إلى (ذهب) متبسمة بظفر.. لكن هالها أن تجدها صامتة ووجهها مطرق بذل وانكسار..

خيل لها فهم اللعبة أخيرا, في حين غمغم (شاهر) رافعا كفا مهدئة:

- لحظة يا بنات.. أنا لم أخضع إلا لمطلب (قبرة).. لم تقصدني إحداكن قبلا!

٢٠

نظرت (لؤلؤة) عبر نافذتها, فرأت عصفورا ملونـــا يتـــشبث بمخالبه الدقيقة فوق غصن شجرة مطلقا لعقيرته المبدعة العنان..

همست بافتتان:

-سيكون يوما رائعا!

سعلت قليلا, فدلفت عليها (ضارية) قائلة لها بقلق:

-أرى أن النوبة داهمتك مجددا..

تأملتها (لؤلؤة) بأسى, ثم قالت لها باسمة:

-لي عندك رجاء..

-أي شيء..

-أريد رؤية (شاهر)!

تبدت حيرة عارمة على وجهها, فكتمت (لؤلؤة) فمها براحة يدها كي تمنع مزيدا من السعال..

بعد دقيقة صمت قالت (ضارية) لها بحنان:

-وهو كذلك أيتها الملاك..

-بل أنت الملاك! اقتربي كي أقبلك..

دنت (ضارية) مقربة وجنتها من الفتاة الضعيفة, فلثمتها الأخيرة هامسة:

–ولا تدعي أحدا يراه يدخل..

–وهو كذلك..

غابت (ضارية) مدة بدت كالدهر, وحاولت (لؤلؤة) التسرية عن نفسها بمراقبة النافذة وهي تتناول مشطا خشبيا ابتدأت تمشط به شعرها الطويل الناعم مدندنة بدلال..

عاودها السعال المحموم, فتماسكت قدر استطاعتها قائلة بضيق صدر وقد احمر وجهها احتقانا:

–ليس بعد! ليس بعد!

نظرت عبر نافذتها, فرأت غصن شجرة يترنح من هبوب الرياح الباردة, لقد تغير الجو بسرعة مخيفة..

همست بأسى:

–ليس بعد! ليس..

وهنا سمعت صوت طرقات منتظمة قبل أن يدخل (شاهر)..

الجزء الثالث

١

- "من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر!"

يوم جمعة بارد الطقس نسبيا..

والمسجد الواقع وسط بلدة "خرم الحنطة" كـــان المـــلاذ في وقت الصلاة لكل ساع لها أو للدفء.. عدد المصلين ينخفض مع مرور الشهور والسنون, فالتجار خرجوا بتجارتهم للخارج, حيث العاصمة والمدن الأخرى, فالرزق في البلدة بات شحيحا, والنفوس باتت تخشى المستقبل أكثر من الله, فحـــق المطفـــف والغشاش والنصاب صار المستقبل هاجسا بالنسبة لهم في بلـــدة نائية لا مستقبل لها..

داخل المسجد يستطيع الغريب أخذ فكرة عامة عن عـــدد السكان ومدى تمسكهم بالتعاليم الدينية, فإذا عقدت مقارنة ما بين عدد المنازل وعدد المصلين الذين يؤمون المسجد لوجـــدت شحا ملحوظا, لا وجود لمساجد أخرى قريبة, والمسافة بـــين البلدة وأقرب مدينة يربو عن المائة كيلومتر..

أصبحت الخطبة مكررة بشكل ملحوظ, فالإمـــام لم يعـــد يهتم بكتابة خطبة جديدة, كان يبحث في المسودات عن خطبة مؤرخة بتاريخ قديم, يستعملها بقلب مطمـــئن إلى أن النـــاس

تسمع من أذن وتخرج ما تسمع من الأذن الأخرى, و لم يكترث لذلك أبدا, فمادام احترامه قائما, وعدد من المصلين يتواجدون في المسجد فلا ضير مما يحدث..

في رمضان يتواجد قاطنو البلدة في المسجد بنفس الكيفية تقريبا, لا مظاهر فرحة بقدوم الشهر الفضيل, لا فوانيس رمضانية بيد الأطفال في الطرقات, لا بهجة ولا سرور, بل ازدياد مفجع في أسعار السلع التموينية, وتهديدات صارمة من الآباء اتجاه الأبناء إذا لم يختموا القرآن الكريم قبل نهاية رمضان, أو أهملوا العشاء والتراويح جماعة في المسجد, كل تلك الصرامة ظاهرية بالطبع, إذ سرعان ما ينس الآباء كل تواصيهم, وينشغل الأبناء باللهو التام الذي أبعدهم كل البعد عن دينهم قبل دراستهم..

أمام البيوت ذات الجدران المتصدعة تجد النفايات متراكمة كالتلال حيث اتخذت الهررة ملاعبها, والرائحة لا تطاق طبعا, لكن الأهالي اعتادوها كما اعتادوا رائحة المجاري العطنة, وفي حوش كل دار تقريبا لابد من عنزة أو تيس ليزيد الرائحة سوءا, وإمعانا في القذارة لا بأس من قن دجاج فوق السطح أو بيت للحمام..

في المدرسة القرية تجد كتابات غاية بالبذاءة على الجدران, كلها وصف لأعضاء النساء المثيرة, ولكن ما يثير الاستغراب حقا هو عدم إزالتها طيلة الوقت رغم أنها جدران مقر لتخريج

أجيال! لا مدرس ينطق ولا فراش حتى, حتى النسوة يمررن من أمام الجدار ويقرأن بلامبالاة!

لم يكن السوق رحبا وافر البضاعة, وقلما تجد النسوة يتسوقن داخله من كثرة الفتية الذين يترصدون أية فرصة كالذئاب الشبقة, يتركون أفواههم مفغورة كلما وقعت أبصارهم على كعب, ويلهثون بانتشاء إذا ما لاح كاحل من بين ثنايا عباءة أو فستان, في حين تظهر الشرطة في فرص نادرة جدا, فعددهم شحيح ورواتبهم غير مشجعة, لكن رئيس المخفر شخص من المعتدين بأنفسهم كثيرا إلى درجة الخيلاء والزهو, وكثيرا ما كان يخرج فقط لاستعراض بدلته الرسمية الأنيقة والنظيفة, والتي تحرص زوجه صغيرة السن على نظافتها وإلا حطم رأسها بكعب مسدسه الأسود اللامع.. كانت فيما مضى طالبة مجتهدة تحب القراءة والأزهار, ثم مقتت ذلك كله عقب ارتباطها برئيس المخفر الذي يكبرها بعشرين سنة على الأقل, فأتم الزواج عملية غسل دماغها لتصير بعدها مواظبة على إعداد أكله, وتنظيف وكواء لبسه, وغسل كاحليه بالماء الساخن والملح, والاستلقاء في فراشه لإرضاء حوائجه إلى حد الهوس!

أما عن المستشفى فحدث ولا حرج.. مجرد مستوصف صغير يشرف عليه طبيب هزيل خشن الذقن سميك النظارات, أتى للبلدة قبل سبع سنوات ابتعادا عن ضوضاء المدن وتحضرها

الزائف, لكن لحسن الحظ أن كفاءته معقولة, كما أنه رجـــل صموت نظراته مفعمة بالحزن طيلة الوقت..

في المساء تجتمع الهررة عند مكب النفايات لتبادل الشكاوي حول بخل أهل البلدة — أم تراه الفقر؟- فالجوع دفع الحيوانات إلى التهام بعضها البعض, ومن عجائب ما وقع في البلـــدة أن الهررة تكاثرت ذات مرة على كلب حتى أتت على عظامه قبل لحمه!

وقد قال المؤذن مرتجفا لما وقع بصره على المشهد الرهيب:

- لابد وأن القيامة دانية, هذه من علامات قيام الـــساعة لا ريب!

وعندما أبصر (مشهراوي) الحلاق ذلك المـــشهد تقلـــص وجهه بأقسى آيات الاشمئزاز, فحمل سطلا وقذف ما به مـــن ماء قذر على المخلوقات ذات الفرو المتسخ والمخالب الحـــادة صائحا:

- هش! هش عليكم لعنة الله!

ولما فرغ من مهمة التنظيف تلك عاد إلى زبونـــه (جعفـــر) الجزار, حيث كان يعكف على حلاقـــة ذقنـــه ذات الـــشوك بالموسى عندما استوقفه مشهد الهررة المشردة أكلة لحم الكلاب الضالة..

- "لم [illegible] إلا أن نأكل نحن البشر لحم بعضنا البعض.."

- "معقولة, كل شيء ممكن في آخر الزمان.."

ثم نسيا تلك السيرة لما أتى ذكر (راجح) على لسان (مشهراوي) الحلاق:

- البغل ابن البغلة! يفكر بالزواج مرة رابعة!

- الله لا يشبعه! ألا يكفيه أن زوجه الثالثة كانت من بنات الهوى؟

- عينه على البنات الصغيرات, زوجه الأولى هرمة, والثانية ولجت سن الكهولة, والثالثة لم تعد تملأ عينه..

- يا بخته! عنده مال يسد عين الشمس, فليصنع ما شاء في دنياه, من يوقفه؟ حتى أولاده لا يستطيعون أمامه شيئا..

- زير النساء السكير! من يصدق أنه كل عام يسافر للحج؟

- وحده الله العالم بسرائر النفوس..

والمضحك في الأمر فعلا أن الأول كان معاقرا للخمر هو الآخر, أما الثاني فمن رواد ملهى ليلي في العاصمة حيث يعاشر راقصة في التاسعة عشرة من عمرها!

يمر من أمام الدكان الحاج (جسار) البقال, يسلم فيردان التحية بأحسن منها, ومن ثم يتآكلانه بألسنتهما:

- المنحط المطفف بالميزان! الله لا يشبعه فلوس لا دنيا ولا آخرة!

طبعا لا يسمعهما الرجل وهو يشق طريقه للمسجد بنعلين ممزقين علامة البخل, وعصا أبنوسية جاءته هدية من ابن عمه في العيد الكبير لما زارهم قبل سنوات..

في الطريق يقع بصره لاعرضيا على شباك دار آل (مسعود), فيلمح ابنتهم (دعة) وقد مرت مرتدية قميص نوم سيسكن مخيلته إلى يوم يبعثون, فيشع فؤاده الهرم بنور الشغف الحيوي, وتصير أغلى أمنياته الارتباط بذلك الكائن الفاتن غزالي الخطوات بدري الملامح, الذي أنساه -أو جعله يتناسى- العجز الذي كان يعاني منه وزوجه..

ولكن إلى أين كانت وجهته بحق الله؟ أجل, كان ذاهبا إلى المسجد ليصلي الظهر..

*****

- "من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر!"

خطيب الجمعة وإمام مسجد البلدة الشيخ (جبران) رجل ممتلئ مركزا وبدنا, يرتدي بشتا بني اللون ويطلق لحية جبارة جعلته شبيها بالمسلمين الأوائل في يثرب..

لا أحد يساءل ذاته عن جوهر الرجل ومعدنه, الجميع بـــلا استثناء كانوا يحترمونه ويهابونه ويشاورونه في كـــل صـــغيرة وكبيرة, سواء أكان الأمر متعلقا بزيجة أو استشارة طبية حتى..

لكن نجم الرجل خفت في الآونـــة الأخـــيرة مـــع تـــوالي الانتكاسات على البلدة, من ناحية الرزق طبعا, فلـــم يتـــوان بعضهم عن لعن الرجل وشتمه في السر, على الأقل لم يجـــاهر أحد بعد بكراهيته للرجل.. كان يحمل جسده الضخم ويـــسير مسبحا بحبيبات من عقيق, مسبحته من ديار المسجد الحـــرام, كذلك السواك الذي لا يفارق جيبه والذي ينظف به أســـنانه على الدوام, متزوج لكن بلا عيال, وقلمـــا يظهـــر اشمئـــزازا للظروف القاسية التي أصابت البلدة, حتى انه لم يأمر في خطبة من خطبه الناس بإماطة الأذى عن الطريق رغم مظاهره الـــتي صارت كعلامة تجارية للبلدة, وبالطبع لم يأمر بإزالة العبـــارات البذيئة من على جدران المدرسة, فصارت معلما سياحيا هـــي الأخرى..

الأجهزة الكهربائية في المسجد كلها معطلـــة, لـــذا كـــان يتوجب على المؤذن صعود سلالم المئذنة ورفع الأذان بعقيرتـــه المبحوحة على الطريقة القديمة, إلا أن حادثا أصاب البـــائس في أحد الأيام, فقد زلت ساقه وسقط فكسرها, وعقب تعافيـــه ورجوعه أمره الشيخ بأخذ حيطته وحـــذره لـــدى ارتقـــاءه الدرجات الخطرة..

- "لكن يا شيخ ساقي لم تتعاف تماما, أخشى أن.."

ردّ عليه الشيخ (جبران) عابسا:

- إذن فاترك عملك هذا لآخر يستطيع القيام به, ما فائدتك إذا لم تتمكن من رفع الآذان؟

حتى الصبيان كفوا عن الهرب من أمامه كلما مر كما كانوا يصنعون سابقا, يشتمهم ويعايرهم بذويهم الذين لم يحسنوا تأديبهم, فيردون عليه بإشارات بذيئة بألسنتهم وأياديهم, وعندئذ يرجمهم بالحصى وكأنه يرجم الشياطين, فيتدافعون هربا ضاحكين سخرية واستهزاء..

- "أولاد الكلاب! إن شاء الله تصيرون حطبا لجهنم وبئس المصير!"

ويواصل طريقه حتى يبلغ دكان (مشهراوي) الحلاق, فيحييه باسما, فيرد الرجل التحية بأحسن منها وهو يصيح ملوحا بالمقص في يده:

- زارتنا البركة يا شيخ, شعر أم ذقن؟"

يرد عليه الشيخ بعصبية مفرطة:

- شعر طبعا, ماذا كنت تتوقع؟

- أمازحك يا شيخ فحسب!

- سامحك الله ..

ثم يجلس على كرسي الحلاقة منتظرا ومن دون خلع البشت الثمين كأنما يخشى عليه من السرقة..

- "الأوضاع صارت جحيما يا شيخ.."

- "الصبر الصبر, (أيوب) صبر.."

- "حفظناها يا شيخ والله, أين نحن من صبر نبينا (أيوب)؟"

- "أستغفر الله العظيم!"

يقولها الشيخ ممتعضا, لكن (مشهراوي) لا يصمت, فيتحول كعادته إلى مذياع يلوك سير الناس ويدنسها, لكن بمكر ودهاء, أحيانا يوافقه الشيخ وأحيانا يعارضه..

لكن هذا لا يمنعه من شتمه في سره كأرذل شيطان..

- "يا شيخ منك السموحة! ولكن أدائي هذه الأيام.. أنت تعلم.. وزوجتي النكدة.."

- "مفهوم مفهوم.."

كان الشيخ على دراية بطب الأعشاب, يشاوره الناس بشأن داء السكري ولآلام المفاصل حتى, فيحاوهم بطب الأعشاب, ففي النهاية يحترمونه على علمه لعونه لهم في أزماهم مع نسائهم ليلا, حيث يوصي بأعشاب مفعولها قوي حسب زعمه, والناس هنا بسطاء يصدقون أي أمل في زيادة الأداء, فالتناسل متعتهم الوحيدة, والشيخ لا يقصر في بعث الأمل في نفوسهم المريضة..

حتى النساء يزرنه لأجل تلك الغاية, والواقع أن البلدة تحولت إلى مهووسين جنسيين لدرجة أن الفتية المقبلين على الزواج زاروا الشيخ للاستزادة من علمه الغزير في هذا الصدد!

وعقب مداواتهم بما يملك كان يودعهم ولسان حاله يقول متهكما:

- بهائم عاجزة, مجرد بهائم!

ثم يعكف على حساب ماله الوفير قبل نومه في فراشه قرير العين, فلا يصحو إلا قبل أذان الفجر بنصف ساعة..

كان فخورا بالمسجد رغم قدمه وسقفه الآيل للسقوط, يرمقه بنظرات الاعتزاز وكأنه معلم تاريخي شهد موقعة من المواقع التي غيرت وجه التاريخ, ولا يسمح للقمامة بالاقتراب منه كما فعلت مع كل الديار, ولا يسمح لوغد صغير واحد برسم أو كتابة حرف واحد على جدار من جدرانه, بيت الله مقدس مادام نظيفا, وبالطبع مادام هو إمامه..

في خاطرة من خواطره التي تؤرق منامه يقول الشيخ:

- أنا رجل الله وعبده المطيع, مهمتي جعل النظام قائما لا مسيبا كما صنع رئيس المخفر الجاهل الوغد, ولن أسمح أبدا بتدنيس حرمة بيت الله.. أبدا!

وبعدها ينام منفرج الأسارير وقد تأكد من قيامه بأداء واجبه كاملا مكملا اليوم, فلا تنتابه أضغاث أحلام تكدر عليه وتعكر له صفوه..

لكن في الآونة الأخيرة عاني الشيخ من كابوس مروع قطن مناماته لفترة لا بأس بها من الزمن, حيث أبصر نفسه يركض في ظلام دامس مريع, وتناهى إلى مسامعه أصوات عواء ذئاب متربصة به, وشاهد بفزع عارم عيونها متألقة في الظلام كيراعات النار, كان هذا قبل أن يثب عليه أحد الذئاب لافتراسه, وحش مروع ضخم الجثة بلون سواد الليل, حدقتاه تختلفان, إذ هما بلون الدم الذي سال من شدقيه..

- "بسم الله الرحمن الرحيم! قل أعوذ برب الفلق.."

قلت ساعات نومه, أصابه أرق مبين من جراء ذلك الكابوس المخيف, حتى أنه غاب مرات عن الصلاة مع الجماعة بحجة المرض, كان يشعر بنفسيته تتهاوى كآبة, وبأن الله يعاقبه لشأن ما, لكن لماذا؟ ماذا صنع؟

٢

كانت ليلة باردة من ليالي فصل الشتاء القاسي..

في الخارج تصاعد عويل الزمهرير وكأنه نفخ بوق ملك الموت شخصيا, أما عن الداخل – داخل المسجد- فقد وقف صف شبه مكتمل وراء الشيخ (جبران) لأداء فريضة الفجر..

على يمين الشيخ وقف (مشهراوي) الحلاق وبجواره ابنه (سعد), يجاوره (راجح) المزواج, ثم (سائد) طبيب البلدة, و(جعفر) الجزار ملتصق به, ثم المؤذن, فالبقال (جسار) وبكره, ثم رئيس المخفر, وأخيرا شاب وسيم يجاوره صبي جميل غزير الشعر الأشقر في العاشرة من عمره.. كان الفتى (سعد) مجرد بلطجي وغد يهوى مطاردة النساء, لكن لوالده سيطرة شبه محكمة على عنقه, لذا كثيرا ما كان يصطحبه رغما عنه للمسجد بغية طرد بعض الشياطين من رأس ولده!

أما الطبيب فقد كان يتوقع الشكاوي عقب الصلاة, فبخبرته الطويلة كان يدرك أن التذمر الحقيقي لهؤلاء يبدأ عقب الصلاة, وعندئذ ينصحهم بمراجعته في أقرب وقت ممكن قبل فوات الأوان, ولم يحدث أن صدق احدهم تشخيصاته ما إذا كانت بسيطة, ونتيجة لهذا صار أكثر أهل البلدة من المحتضرين!

(راجح) يرى قدود النسوة مجردة من الثياب أثناء الصلاة في مخيلته المريضة, ورئيس المخفر يضع يده على سلاحه الساكن في

الجراب كلما ركعوا, وكأنما يتأكد من وجوده هناك, صورة ذلك السلاح البراق الجميل لا تفارق مخيلته أبدا..

(مشهراوي) يحلم بتطليق حرمته, و(جعفر) يحلم بقتلها, و(حسار) البقال يتخيل نفسه أغنى من (هارون الرشيد), تحيط به حسان القيان ويسهر على راحته عبيد ملاح غلمان..

والأسوأ أن هذا كله يتم بقيادة شيخ لا يكف ذهنه عن تصور عضة ذئب شرس حالك كالليل في كل شبر من جسده وكأنه هوس, وفي النهاية تلا بفكر مبلبل ومخيلة محمومة:

- ((الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من الظلمات..))

لم يتنبه واحد من المصلين لذلك الخطأ سوى الفتى الناحل الوسيم الذي تلا مصححا:

- ((والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات..))

انتبه الشيخ (جبران) للخطأ غير المقصود, ثم تنبه - هلعا- إلى أنها المرة الأولى في حياته المهنية بأسرها, فتمتم بنبرة مغيبة وبصر زائغ بذات الخطأ متشبثا به! وكأنما يصر على أنها الآية الصحيحة! فعاود الشاب التصحيح بإصرار, مما دفع الشيخ إلى الركوع على الفور مكبرا بغيظ مكبوت ومن دون أن ينهي الآية الكريمة!

– "الله أكبر.. سمع الله لمن حمد!"

لن ينسى ذلك الصوت للأزل! أصابه بمجرد سماعه بغمامة الكآبة التي لا تزول بسهولة, في قرارة نفسه كان مدركا أن الشاب قام بما يتحتم عليه فعله من صواب, لكن الغيظ اشتعل كجذوة النار في مخزن للقش, بين ثنايا جوفه وقلبه وأحشاءه, وشعر بالدهشة والذهول للكراهية التي أصابته من جراء ذلك, كانت كراهية بلغت مدى تمني الهلاك لذلك الشاب البريء!

ومن دون أن يشعر زاد من سرعته في أداء الفريضة بغية إلقاء نظرة على وجه ذلك الشاب الذي استحق بغضه غير المبرر, من كان بحق الله؟ أهو غريب أم ماذا؟ كيف لا يتذكر ملامحه؟

– "السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله.."

وانتظر هنيهة قبل وثوبه للوراء والنظر بتلهف, فوقع بصره على وجه رجولي لشاب حسن التقاسيم والتكوين, لكنه لا يهتم بقص شعره وحلاقة ذقنه كما يبدو عليه..

كان يرتدي سترة بسيطة, وقد تهدلت خصلات من شعره الأسود الناعم على عينيه العسليتين, فتفكر الشيخ – مغتاظا – في أثر تلك الخصلات وتلكم العينان على أفكار العذراوات الفاتنات, وتفكر بغم وشرود في حكايته البائسة مع صلعته الكريهة التي يخفيها بالعمامة على الدوام..

كانت دهشته في تزايد من مدى خبث أفكاره وقساوتها, فاستغفر ربه العظيم بلسانه وقلبه بلا كلل, وإن لم يتمكن من زحزحة بصره عن الشاب الذي بدا سارحا في شيء لا يعلمه إلا الله وسواه..

نهض أول من نهض بكر (جسار), فسار بخطوات متعجلة صوب الباب مغادرا..

عندما فتح الباب لفحتهم جميعا ريح باردة بعثت القشعريرة في أوصالهم وكأنه تيار كهربائي, فضم الفتى سترته الجلدية بقوة, وقال عبارة أثارت استغراب بعضهم:

– يا له من ظلام غريب!

ثم شق طريقه للخارج.. وكانت تلك آخر مرة يرونه بها! إذ ارتفعت صرخته المروعة بطريقة انخلعت لها قلوبهم, فوثبوا برشاقة على أقدامهم, ومن ثم تدافعوا نحو الباب وأولهم (جسار) الذي ردد برعب لا يوصف:

- ما كان هذا؟! ما كان هذا؟!

في حين ردد المؤذن أدعية محمومة ويده على قلبه, وسارع الشاب الوسيم بفتح الباب على مصراعيه, ثم لم يلبث أن فترت حماسته..

لم يكن الظلام غريبا, كان مخيفا كرعب قصص يوم القيامة وعذاب القبر, في الأحوال المعتادة كان بإمكان أي امرئ رؤية

البيوت على ضوء مصابيح الزيت وهو خـــارج, وحـــتى وإن انطفأت لا يزال بإمكانه تبينها..

لكن الظلام هذه المرة كان دامسا بقوة لا توصف, وكأنهم ينظرون للخارج من مناظير العميان! والذي زاد الأمر سوءا هو صوت الصراخ الأليم لشخص يتعذب عذاب الويل, صـــراخ ضحية تخللته أصوات ضاحكة كريهة لمعذبيه!

ارتجف بدن المؤذن وهو يصيح بعينين جاحظتين:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! أسمعتم؟! هذا صوتهم!

- صوتهم؟!

- صوت الشياطين!!

- تعقل يا رجل! منذ متى تسمع أصوات الـــشياطين كـــي تألفها أذنك؟!

فوجئوا أكثر بالشاب يحاول الانـــدفاع خارجـــا, فوضـــع أكثرهم أياديهم على كتفه لمنعه صائحين:

- إلى أين يا بني؟!

- ألم تسمعوا؟ يجب أن ننقذه!

- ننقذ من يا بني؟ لقد انتهى الفتى!

وهنا صاح (جسار) هلعا:

- ماذا نصنع إذن؟

كان يسأل عن موقفهم وعما يواجهونه بالطبع, فلم يكن يكترث أدنى اكتراث لحياة ولده, وبالتأكيد كانوا يعلمون ذلك لكنهم تجاهلوا الأمر..

أبعد الشاب أياديهم عنه بحدة وصوته يرتفع بذات الاحتداد:

- نخرج من هنا طبعا معا..

- هل جننت يا بني؟ نحن نجهل ما يقبع بالخارج بانتظار خطوة حمقاء كهذه..

وتمتم الشيخ (جبران) متهكما رغم دقة الموقف وخطورته:

- يا له من متهور طائش!

تجاهله الفتى قائلا للبقية:

- ماذا تقترحون إذن؟ البقاء حتى مطلع الفجر؟

- يا لها من فكرة سديدة!

- فعلا! رب رمية من غير رام! فلنجلس وننتظر شروق الشمس!

أشار الشاب للخارج صائحا بنبرة ذاهلة:

- وماذا عن البائس الذي..

قاطعه الشيخ دون أن يملك إخفاء مقته:

- ماذا عنه؟ ألم تدرك بعد أنه انتهى؟ والآن أغلقوا البـــاب بسرعة..

تكاثروا على الباب حـــتى أغلقـــوه, ثم تراجعـــوا للـــوراء متحاورين, فلحق بهم الشاب متجهما يتبعه الصبي الأشقر..

المؤذن يردد أدعية لا حصر لها وجسمه ينتفض بين الفينـــة والفينة, ثم يسارع بسحب مصحف صغير والقراءة منه.. التوتر قد غزى بعض الوجوه, والخوف واضح على أكثرها, والشاب الوسيم لا يظهر توترا أو خوفا, بل يراقب الوجوه ببصر خاو..

(سعد) البلطجي ينظر من خلال فجوات الزخـــارف عـــبر نافذة المسجد, قبل غمغمته الراجفة قليلا:

- لا أتبين شيئا, العتمة أحلك من قلب كافر!

- رحمتك يا رب!

- ما الذي يحدث بحق الله؟ أهي القيامة؟

- "لابد وأنها كذلك!!"

كذا صاح المؤذن وقد كفّ عن التلاوة, بدا وكأن عقله قد كفّ عن التفكير أيضا, فقد أطلق صرخة قصيرة قبل استرساله برعب لا يمكن وصفه:

- أتت الساعة أخيرا, والخاطئ سيحاكم على أفعاله!

قال (جعفر) ببرودة مدهشة:

- وماذا في ذلك؟ نحن قوم مسلمون، ولم نفعل ما يستوجب الذكر..

رمقه الشيخ (جبران) بأقسى نظراته، في حين أعطى الطبيب (سائد) ظهره لأحد الجدران وهو يدمدم مرتجفا:

- القيامة؟!

وكأنه لم يكن يؤمن بوجودها..

إلا أن الشاب قال برصانة:

- لا أظن..

صوّب الشيخ بنظرات قاسية صوبه وهو يقول بصرامة:

- ماذا؟ ألا تؤمن بالقيامة؟ أأنت مسيحي؟ ربما ملحد!

- لا لست كذلك، لكن القيامة لا تحدث فجأة، أين العلامات الكبرى؟

- ربما حدثت ونحن في هذه البلدة الملعونة لا ندري عن وقوعها شيئا..

- ماهذا الهراء الذي تقوله؟ أين الأعور الدجال ويأجوج ومأجوج؟ أين المهدي المنتظر وسيدنا (عيسى) عليه السلام؟

احتقن وجه الشيخ بشدة، ثم نطق قائلا بغلظة:

- أتجدف أيها الشاب؟!

نظر إليه الشاب قائلا بدهشة:

- أحذف؟! أثمة خطا فيما قلته يا شيخ؟

وقبل أن يرد الشيخ (جبران) ردا غليظا آخر, فوجئ الجميع بأصوات طرقات تتصاعد على باب المسجد..

*****

أخيرا فقد المؤذن أعصابه تماما, فقهقه قائلا بمرح:

- لقد أتوا أخيرا!

- من أتى؟! ولماذا؟!

- مخلوقات الظلام! ستأخذ أرواحنا إلى جهنم!!

- ماهذا الذي تهرف به؟!

أخيرا نطق (مشهراوي) الحلاق, فقال بصوت خافت:

- هل نفتح؟

رمقه الجميع بنظرات مستنكرة, فانكمش على نفسه متأملا التطريز شبه المتناسق في بساط المسجد, فبدا مظهره مضحكا خصوصا وأن جثته بحجم جثة الثور..

وفجأة, وفي لحظة بدت لهم غادرة, اندفع المؤذن صوب الباب, فارتفعت أصواتهم الهلعة بآن واحد:

- "لا تفتح الباب!!"

لكنه تجاهلهم وفتح الباب على مصراعيه قائلا ببصر زائـغ ولعاب تحرر من فاهه المفغور:

- يا أهلا وسهلا! شرفتم بيت الله!

تراجعوا جميعهم مغطين وجوههم بأياديهم وقد توقعوا الشر بأبشع صوره, إلا أن شيئا لم يحدث, وظل المؤذن واقفا يـردد عبارته تلك من دون استجابة ما..

كفوا عن هلعهم قليلا, واقتربوا أكثر مستجمعين شجاعتهم قليلا, وقد غمغم (جسار) البقال بنبرة ضيق واضحة:

- ربما كانت مجرد دعابة سمجة..

بدا الأمر منطقيا للبعض أكثر, لكن للأسـف, لم ينعمـوا بالارتياح لذلك الرأي لأكثر من نصف ثانية..

ففي نصف الثانية التالي, فوجئوا - بعيون غـير مـصدقة ووجوه شاحبة- بيد ماردة زرقاء اللون تقبض علـى وسـط المؤذن الذي كان يمد ذراعيه في الهواء وكأنما يستقبل ضـيفا, فاعتصره واعتصره حتى جعل الدم يتفجر من محجريه ومنخريه وأذنيه!!

ثم سمعوا - والرعب يشوه وجوههم- صوت عظام الرجل تتحطم, ومن ثم سحبته تلك القبضة العملاقة المفزعة إلى جوف الظلمات!!

- "لا!! لا!!"

كانت هذه من الحاج (راجح), الذي انكفأ على الأرض مغطيا رأسه بذراعيه, وفي جنون صرخ رئيس المخفر وهو يشهر سلاحه للمرة الأولى في تاريخ حياته المهنية:

- أوصدوا الباب!! أوصدوه!!"

لم يجرؤ أحد سوى الشاب على تنفيذ الأمر, ثم عاودوا التراجع حتى التصقوا بالجهة المقابلة, والغريب أن رئيس المخفر لم يجد الجرأة في نفسه لإطلاق النار على تلك القبضة المسخية, وبذعر يستحيل وصفه صرخ (راجح) ودموع الفزع تنهمر من مقلتيه الغائرتين:

- إنها القيامة حقا, وتلك المخلوقات هي شياطينها!

ورغم دقة الموقف قال الشاب بعصبية:

- وما علاقة الشياطين بالقيامة؟

- يا إلهي!! إرحمنا يا إلهي!!

جلس الشاب أرضا وهو يهمس بصوت شبه مسموع:

- ليست مزحة إذن..

- ماذا كنت تتوقع؟ تلك الذراع وتلك القبضة كانتا لعفريت من الجان الأزرق!

- ولماذا تهاجمنا العفاريت إذن؟

- وما أدراني عليك اللعنة؟!

كانت عصبيتهم قد ازدادت عديدا من الدرجات, ما رأوه كان حقيقة وليس وهما, دم المؤذن على بساط المسجد عند مقدمة الباب يؤكد ذلك..

- "ربما نحن نعاقب على خطايانا فعلا.."

التفتوا جميعهم إلى الشيخ (جبران) الذي أظهر وجوما جعلهم مشدوهين, وبحدة شديدة صاح (جعفر) وسبابته مصوبة باتجاهه:

- أنت تقول ذلك يا شيخ؟!

- ما رأيناه كان الهول, وأي هول؟ أي هول ذاك الذي تنبعث منه قبضة عفريت من قلب الظلمات, إن ثمة حكمة فيما حدث, خصوصا وأن (عابد) كان..

ثم استسلم للصمت, فألح عليه (جعفر) بخشونة:

- ماذا؟ (عابد) كان ماذا؟

سكت الشيخ (جبران) وإن أفصح صمته واتساع بصره عن مكنون من الأسرار والخبايا المخيفة في عقله وقلبه..

٣

- "يؤذن للصلاة وهو سكران؟!"

سدد الشيخ (جبران) بنظراته إلى رئيس المخفر المستنكر قبل أن يومئ برأسه إيجابا, فاتسعت عينا الأخير أكثر قبل أن يردف:

- وأنت كنت تعلم؟

- وماذا عساي أفعل؟ قد حاولت مرارا وتكرارا نصحه لكن للأسف..

- للأسف؟ مؤذن بيت الله رجل سكير؟ كيف لم تطرده؟

- وأين أجد مؤذنا غيره؟ لا يوجد من يحل محله..

قال الشاب مستنكرا:

- أذن أنت!

عاود الشيخ رمقه بنظرات الكره وشفتاه تتمتمان بغيظ مكبوت:

- الأمر ليس بتلك السهولة التي تتصورها يا فتى!

- حقا؟ أتدري إذن؟ أنا لم أعد أستغرب موضوع عقابنا على خطايانا!

- ومن أنت بحق جهنم؟!

تبسم الشاب مستغربا وهو يرد:

- أتسألني حقا أم ماذا؟

- بل أسألك, أنا لم أتشرف بحضرتك بعد؟ من أنت؟ مـــن هذا؟!

كذا تساءل الشيخ وهو ينظر في وجوه القوم, فـــردّ عليـــه الشاب:

- مجرد عابر سبيل غريب سمع الأذان فلبى النداء! واسمـــي هو(شاهر)..

صمت الشيخ ممتعضا, في حين قال (مشهراوي) متزعجا:

- لا أظن هذا وقت التعارف يا رجال, علينا أن نجد حـــلا لمشكلتنا الرهيبة..

تمشى (جعفر) كالمتريض وهو يهتف:

- ننتظر مطلع الفجر كما خططنا من قبل..

في حين أخذ الطبيب (سائد) يردد همس سمعه الجميع:

- أوهام! مجرد أوهام ابتدعتها عقولنا!

- يا لتلك الأوهام التي تصيبنا جماعة! يا لتلك الأوهام التي خلفت بقعة الدم الهائلة تلك!

كذا قال الشيخ متهكما, وتابع بمقلتيه الشاب وهو يتخـــذ لنفسه زاوية حيث أخذ يراقب من إحدى نوافذ المسجد..

عجبا! لقد شعر الشيخ بكراهيته له في تزايد! لماذا؟ لماذا يشعر بالمقت كلما أدار رأسه اتجاهه أو سمع حرفا من حروف كلماته؟

وعاود النظر إليه, فوجده شابا وسيما حسن التكوين! أما عنه فيمتاز بصلعة قبيحة وجسد مترهل واحترام بدأ يتقوض من أهل بلدة المنكر هذه! أتراه السبب إذن؟

لكن أفكاره اختلفت تماما لما حوّل بصره جهة الصبي الأشقر الجميل, كان يشعر براحة وإعجاب كلما نظر إليه, و لم يحاول معرفة كنه الصبي أبدا رغم أنه يراه للمرة الأولى في حياته – أو أنه رآه من قبل ونسيه- لكنه لم يستطع كبح جماح الراحة النفسية التي يستشعرها كلما وقع بصره على وجه الصبي المليح..

هل هو شقيق الغريب؟ ثمة مسحة تشابه بينهما, لكنه لن يسأل, حتما لن يفعل..

- "أنا لا أستطيع الوقوف مكتوف اليدين هكذا.."

سمعه الجميع وهو يطرق الجدار بقبضته عدة مرات, فتحول انتباههم الكامل نحوه, في حين هتف (سعد) ساخرا:

- وماذا تريد أن تفعل يا فارس الزمان؟

بدا وكأن (شاهر) قد تجاهل سخريته عندما أجاب مخاطبا إياه بجدية:

- ماذا لو أشرقت الشمس وبقي الحال على ما هو عليه؟ ثم انكم قد نسيتم أمرا هاما وخطرا, ماذا يحدث لأهـــاليكم الآن؟ ماذا يحدث لزوجاتكم وأولادكم الآن؟ هل يهاجمون من قبـــل مخلوقات الظلام تلك أم ماذا؟

هوى كلامه على رؤوسهم كحربات الصواعق, حقا مـــا يقوله, هل أهالي البلدة بخير أم يتعرضون لكوارث مماثلة؟

لكن (جعفر) قال متهكما وكأن الأمر لا يعنيه بتاتا:

- أراهن بدكاني أننا لوحدنا من يتعــرض هــذا العقـــاب المخيف.. نحن المسئولين كل المسؤولية أمام الله وأمام نبيه عـــن كل التجاوزات التي حدثت, فنحن لم نحرك إصبعا للتجاوزات التي تحدث..

ورمق رئيس المخفر بنظرات تتقاطر اشمئزازا, فعبس الأخير صائحا:

- ماذا؟ أتتهمني بتجاوزاتك المزعومة؟ هل جننت يا ابن..

صاح (جسار) وقد انتابه الذعر:

- نحن في بيت الله!

صمت رئيس المخفر بغتة قبل تبسمه مستهينا, ثم حدق في السقف قائلا:

- الواقع أنكم حفنة من الأوغاد الذين أخذهم العزة بالإثم, وما دمنا "في الهوى سوى" كما يقولون دعوني أذكـــركم أن التجاوزات التي تتحدثون عنها متعلقة بكم كلكم, وربنا قـــد أمر بالستر..

هتف (جعفر) متحديا:

- لا, أفصح أرجوك! لا تدع الفضول يقتلنا كمـــا قتـــل القط!

- أنت بالذات تخرس! تحاول إيهام الجميع أنـــك ولي مـــن أولياء الله بينما أنت مجرد شـــيطان إنـــسي يعيـــث في الأرض فسادا..

احتد الشيخ قائلا بنبر غضب:

- يا سيدي لا تتهم الناس جزافا, كما أن ربنا قـــد أمـــر بالستر كما تفضلت أنت, واحترموا بيت الله الذي نحن فيه..

لكن رئيس المخفر تجاهله وهو يواصـــل حديثـــه مخاطبـــا (جعفر):

- لا تدفعني إلى النطق يا (جعفر), فأنت كغيرك من أهـــالي هذه البلدة الملعونة, مجرد نصاب ووغد أيضا!

وهنا صرخ (جعفر) كالممسوس:

- لا أنطق! أتحفنا بدررك الزائفة! كيف صار وغد جبان مثلك مسئولا عن أمن بلدتنا؟!

- ط فيك وفي بلدتك يا ابن..

- "كفى!"

ردد الصدى صيحة الشيخ فصمتا من فورهما..

- "لن اسمح أبدا بالتفوه بمثل تلك السفالات في مسجدي, هل جننتما؟ أأصابكما مس أم ماذا؟ نحن قوم مسلمون لا همج تربوا في الشوارع ومكبات الأزقة.."

صمتا والكره باد عليهما اتجاه بعض, فتنفس (مشهراوي) الصعداء قبل أن يقول:

- هداكما الله..

ابتسم (جعفر) بسمة مستخفة أثارت حفيظة رئيس المخفر, فلوح بإصبع سبابته اتجاهه وهو يقول من بين أسنان مغتاظة:

- إذن اعلموا أن الوغد كان يبيعكم في الآونة الأخيرة لحوم الكلاب الضالة كي تلتهموها على موائدكم أنتم وأولادكم!!

اتسعت عيونهم أشد اتساع وهم يحلقون في وجه (جعفر), الذي فقد ثقته بنفسه دفعة واحدة وقد اصفرت سحنته تماما..

ثم بوغتوا جميعا بسماع أصوات الطرقات الرهيبة تتـــصاعد مجددا على باب المسجد, فتبادلوا نظرات ملؤها الرعب والفزع الشديدين..

*****

قال رئيس المخفر معاود استخراج سلاحه الأسود اللامـــع من جرابه:

- إياكم وفتح الباب!

- ماذا تحسبنا؟ مخابيل؟

كانت أبصارهم متجهة صوب البـــاب مـــا عـــدا بـــصر (مشهراوي) الذي أغمد بصره في مقلتي صديق عمره (جعفر) وبحنق سأله:

- لابد وأنهم قد أتوا من أجلك!

رمقه (جعفر) بعينين زائغتين من فرط الرعب, ثم صاح:

- صدقته يا (مشهراوي)؟ صدقت اللئيم المخادع؟!

- ولم لا؟ أنت أكبر وغد عرفته في حياتي!

- ماذا تقول يا (مشهراوي)؟!

صارت الطرقات أقسى وأخشن, فقال (مشهراوي) بتهكم رغم ذلك:

- عقاب الله آت يا (جعفر), فكن مستعدا!

- الله يأخذكم إلى سعيره!

وتراجع كالثور الهائج استعدادا لمهاجمة أحدهم, فصوب رئيس المخفر سلاحه إليه قائلا بصرامة:

- لا تتحرك من مكانك, اذهب وافتح الباب!

- ماذا يا وغد؟!

- كما سمعت!

حولوا جميعهم أبصارهم إلى رئيس المخفر, وبنبرة متلعثمة قال (جسار):

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- أنوي معاقبة المجرم على أفعاله, ألا تبتغون النجاة؟ كيف ننجو إذا دافعنا عن مجرم كهذا المجرم؟

وهنا قال (شاهر) بصرامة مماثلة:

- كما ندافع عمن تستر على أفعاله!

- ماذا تقول يا فتى؟!

- أقول أنك كنت تعلم طيلة الوقت بجرائم (جعفر), فلماذا لم تلق القبض عليه إذن؟

- لم أكن متأكدا, كان علي ضبطه متلبسا..

قهقه (جعفر) قائلا بمقت:

- أم أنك كنت تنتظر اللحظة المناسبة لابتزازي؟

- بإمكانك قول أي شيء الآن, لكنك لن تضعني في دائرة الشبهة أبدا, أنا أنظف واشرف من أي وغد في هذه البلدة, أنا منفذ القانون هنا, لذا آمرك بالتقدم نحو ذلك الباب وتقبل مصيرك كرجل وإلا..

ورفع سلاحه في رسالة جلية المعنى, فارتعشت شفتا الرجل الضخم قليلا وهو يتمتم:

- أفضل أن تطلق النار علي..

انتفضت أبدانهم عقب سماع دوي الطلقة, فانشده (جعفر) وهو ينبش جسده ملهوفا بحثا عنها, لكنه لم يجدها لحسن حظه..

- "لن أكرر الأمر, الطلقة التالية ستكون في كرشك.. تحرك!!"

اقشعر (جعفر) وهو يسير بقدمين زلقتين, فقال (شاهر) غاضبا:

- قد يكون مجرما يا سيدي, لكني أرفض أسلوبك هذا..

انحرف مسار السلاح ليصير مواجها للفتى!

- "أتبغي فتح الباب بدلا عنه؟"

صمت (شاهر) وهو يتنفس بعمق, ثم ردّ بحزم:

- أجل!

كان لكلامه وقع الصاعقة عليهم, إلا أنه تجاهلـــهم جميعـــا وهو يتجه صوب الباب..

- "لا تتهور يا فتى.."

ورمقه (جعفر) بنظرات غارقة في العرفان والامتنان, لكـــن (شاهر) تجاهله وتجاهلهم مسارعا بفتح الباب قبل أن ينال منه الخوف أو التردد..

حدق شاردا في الظلمة المخيفة, وبشرود أكبر غمغم:

- توقفت الطرقات..

وأضاف:

- لا أحد على الباب!

فوجئوا - وفوجئ هو أكثر- بشيء عملاق داكـــن يثـــب عليه ويوقعه أرضا, وسمع صراخهم الجنوني يكاد يصم أذنيـــه, لكنه لم يكترث لذلك فقد غاب عن الوعي..

٤

عندما أفاق (شاهر) من غيبوبته, وجد الصبي جالسا عند رأسه وهو يمسح له جبهته برفق..

- "ماذا حدث؟"

ونهض ببطء متحسسا صدغه, فوجد الرجال يرتجفون وبعضهم يبكون!

- "ماذا حدث؟ أين (جعفر)؟"

تطوع (راجح) بالإجابة, إذ قال وهو لا يكف عن النهنهة:

- انتهى! افترسه الوحش الأسود واحتمل جثته بأنيابه خارجا!

- رحماك يا إلهي!

قال (مشهراوي) كالبلهاء محدقا بالسقف:

- كان يشبه الكلب, لكن أنيابه مثل أنياب الأسود! لم يفترس سوى (جعفر) و(جعفر) وحده..

إذن فنحن نعاقب على خطايانا فعلا!

بدا (شاهر) غير مقتنع بذلك الكلام, لكنه قرر الاحتفاظ بأفكاره لنفسه, وبوجه عابس غمغم:

- كم الساعة الآن؟

ونظر باتجاه ساعة المسجد المعلقة, فوجدها تشير للسابعة صباحا!

ابتسم ابتسامة مريرة, وبتجهم قال:

- يبدو ألا منجاة لنا من الظلمات يا سادة!

قال رئيس المخفر ببرودة مداعبا فوهة سلاحه:

- ربما كان هذا ظنك, لكن رجل القانون يفكر بطريقة مخالفة تماما.. لقد علقنا في المسجد لغاية لا يعلمها سوى الله, وأظن أن تلك الغاية قد بدأت بالاتضاح أخيرا..

تساءل (مشهراوي) مرتجفا:

- ماذا تعني؟

تأمل وجوههم وقد بدا منتفخ الأوداج, وبعزم قال:

- يبدو وأنها لحظة الحقيقة يا قوم, نحن عالقون هنا إلى أن ينتهي هذا الكابوس, والكابوس قد حضر لأجلنا نحن, ونحن فقط من يقدر على إنهاءه..

- كيف؟!

- بذات الطريقة التي أنهينا بها (جعفر), نحن لن نتمكن من الخروج إلا إذا أدنا كل مجرم جاء إلى هنا مدعيا الإيمان والتقى!

كلنا أتينا للصلاة, لكن هذا لا يمنع وجود منافقين بيننا, ويبدو أن الظلمات لن ترحل والنور لن يبزغ إلا لو تبينا الطالح من الصالح!

تدخل الشيخ (جبران) قائلا بنبرة حادة:

- حذار من التجديف!

- أنا لا أجدف يا شيخ, أنا أبسط لكم الحقائق..

- وأنا لن أسمح بالمزيد, سنظل ننتظر إلى أن يفرج الله كربتنا..

هرش رئيس المخفر ذقنه بسلاحه قائلا باستهزاء:

- لقد استلم القانون من هنا يا شيخ! آسف لكن الواجب ينادي, وقد اعتدت تلبية النداء!

- ماذا تعني؟

قال (شاهر) بحزم:

- المعنى واضح يا شيخ, سيادة رئيس المخفر المحترم ينوي استجوابنا وتسليمنا للعدالة الإلهية!

- أنوي تسليم المجرم فحسب, وهذه ليست خطيئة أبدا..

- يلوح لي أنك تبحث عن منجاتك أنت فحسب!

- أنا لا أقلق من شيء مادمت محقا, ثم ان سمعتي عطرة, لم يحدث أن قبلت رشوة من أحد, وقد قمت بواجبي اتجاه أهـــل البلدة خير قيام..

- تبدو واثقا من نفسك!

- وذلك هو سر نجاحي.. إذن! من منكم يرغب بالبدء؟

صمتوا كأن على رؤوسهم الطير, فتبسم الرجل وهو يـــدق بسلاحه الجدار الذي وراءه, وبتهكم قال:

- هذه الجلسة منعقدة بأمر من رئيس مخفر البلدة, حيـــث سنبدأ باستجواب..

ورفع سلاحه صوبهم, ثم مرره ببطء فيما بينهم هامسا:

- ب ب ب ب... بك أنت!

- أنا؟!

قالها (جسار) البقال ويداه تنقران صدره بذعر, فصبغ رئيس المخفر كلامه ونبرته بلهجة رسمية وكأنه علـــى وشـــك فـــتح محضر:

- السيد (جسار النخل), بقال بلدتنا, الرجل الذي سمعنـــا اتهامات كثيرة بحقه..

- اتهامات؟!

- يقال أنك من المطففين؟ فما ردك على هذا الاتهام؟

- كذب طبعا! لا يوجد دليل واحد!

- لسنا بصدد أدلة هاهنا, بل سنعرض الاتهامات و..

- وماذا؟!

- وباب المسجد سيكون الحكم!

نظر له الشيخ (جبران) متسائلا:

- ماذا تعني؟

- عندما كشفنا أمر (جعفر) الجزار تصاعد صوت طرقات تلكم المخلوقات على الباب.. إذن كل ما علينا فعله هو استعراض الاتهامات بخصوص كل شخص هنا, وإذا تصاعد صوت الطرقات فمعنى ذلك أنه قد أدين!

قال (شاهر):

- لحظة واحدة, نحن لم نعلم بما اقترفه مؤذن المسجد إلا عقب أن صرعته قبضة المسخ ذاك..

كان رئيس المخفر يتذكر ذلك, وقد خشي أن يذكره واحد آخر لعدم إيجاده التفسير المناسب لما حصل, لذا قال بضيق وخشونة بآن واحد:

- لست مطالبا بتفسير أمور خارقة للعادة, لكن أعتقد أنـــه إنذار رباني بأن نسارع بالاعتراف, فالعقاب سيترل بنا شئنا أم أبينا, ومنجاتنا تكمن بالاعتراف..

عاود (شاهر) القول ولكن بصلابة هذه المرة:

- وهل ستعترف بخطاياك أيضا أم ستظل تمددنا بسلاحك حتى تتأكد من هلاكنا جميعا؟

- كفّ عن استفزازي أيها الشاب فلصبري حدود..

ثم ولى اهتمامه شطر البقال البائس الذي لا زال مرتجفا من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه, فشدد من لهجته عليه لما خاطبه بقوله:

- والآن.. هل تعترف بالتهم المنسوبة إليك؟

- أي تهم؟

- تهم الغش على الزبائن! بيع البضاعة الفاسدة والتلاعـــب بمكاييل الميزان و..

- أنا تاجر أمين!

تبدت بسمة سخرية على ثغر رئيس المخفر, وببرودة تمـــتم متأملا وجوه البقية:

- تاجر أمين؟ يبدو وأن الليلة ستكون طويلة حقا..

كان (شاهر) يتابع ما يحدث وقد انبعث من أعماقه رفـض تام, عندما شعر بأحد يجذب له كم قميصه لأسـفل.. نظـر مستغربا فوجد الصبي الخائف يحاول إن يسترعي انتباهه فسأله برفق:

- هل من خطب أيها الرجل الصغير؟

أشار الصبي إلى زاوية من زوايا المسجد من ورائهم, فأبصر (شاهر) رجلا يجلس في الزاوية حتى التصق بها كالحرباء, حـتى وجهه ملتصق هنالك, كان الرجل غريبا عنهم, يرتدي جلابية وطاقية ويتمسح بجدران المسجد وكأنه يتبرك بها!

*****

أخيرا تنبه القوم إلى ما استرعى انتباه (شـاهر), فحـدقوا ذاهلين وأحدهم يهتف برعب:

- من هذا؟ وكيف دخل إلى هنا؟

قال (شاهر) وهو يقترب منه بحذر:

- دعونا نسأله..

صاح (مشهراوي) بفزع:

- لا تقترب منه! لابد وأنه.. بسم الله الرحمن الرحيم!

وهنا نهض ذلك الرجل فجأة, نهض بسرعة انخلعت لها قلوبهم, ثم التفت ورمقهم بنظرات طويلة متهمة حتى توقف بصره عند..

- "لماذا يتأملك هكذا يا (جسار)؟ هل تعرفه؟"

بدا (جسار) وكأن السكتة القلبية قد نالت منه, كما أن علائم الرعب المبين قد رسمت أقسى تعابيرها على سحنته المجعدة..

فتح الرجل الغريب فمه المشقق أخيرا, وبأنين المعذبين قال مخاطبا (جسار):

- تذكرتني يا (جسار)؟ تذكرت صاحبك (صابر) من قرية النبع؟

- لا!!

وسقط (جسار) على مؤخرته وأطرافه تهتز وترجف كأن تيارا كهربيا سرى بها, في حين رفع الرجل المخيف جلابيته لفوق كاشفا عن أشنع ساقين يمكن رؤيتهما, وهو ينتحب صارخا:

- تذكرتني يا (جسار)؟ تذكرت صاحبك المشلول الذي أودع عندك ماله أمانة؟ أتذكر خيانتك للأمانة؟!

وفي تلك اللحظة سمعوا كلهم صوت الطرقات المروع!

ورغم الخوف الذي شعر به رئيس المخفر, إلا أنــه تمالــك نفسه, وبدا رابط الجأش لما استدار نحوهم صائحا بقوله:

- نحن نقوم بالصواب إذن! إنها علامة من الله كنا بانتظارها مطولا!!

وبانفعال التفت إلى (حسار) صائحا به:

- اعترف يا (حسار)! اعترف بما ارتكبته بحــق صــاحبك هذا! يبدو وأن خطاياك أكبر من مجرد التلاعب بمكيال الميــزان وبيع أطعمة انتهى تاريخ صلاحيتها!

كان الموقف غريبا وعصيبا, لم يملك معه أحد النطق بحرف واحد..

لكن (حسار) نطق, فصرخ وإصبعه يشير إلى الرجل:

- هذه خدعة! أنا لا أعرف هذا الرجل! لا أعرفه!

- الإنكار لن يفيدك.. اعترف!

صارت الطرقات أشد وأقوى, فازدادت عــصبية رئــيس المخفر وقسوته عندما صاح مهددا بسلاحه:

- افتح الباب عليك اللعنة!

- لا!!

- افتحه وإلا أطلقت النار عليك! افتحه مادمت بريئا!

- لا!!

- إذن لست ببريء كما تحاول إيهامنا أيها الوغد!

ونظر باتجاه القوم صائحا بهم:

- احملوه وارموه خارجا!

- هل جننت يا سيدي؟

نظر رئيس المخفر إلى (شاهر) وصرخ بوجهه:

- كلمة أخرى وألقيك أنت بدلا منه! تريدون النجاة؟ إذن لا تقفوا في وجه العدالة, دعوا العدالة تأخذ مجراها!

بدا التردد على الوجوه, فأطلق الرجل طلقة في الهواء صائحا بثورة:

- الآن!

كان هذا أكثر من كاف, فانقضوا كلهم — عدا (شاهر) والصبي- على (جسار) الذي أخذ يصرخ كالممسوسين, فجروه حتى الباب والفتى (سعد) يسارع بفتحه, في حين قاومهم (جسار) بعنف وهو ينعتهم بملافظ شائنة, لكنهم لم يفلتوه..

وما هي إلا ثوان معدودات حتى انبثقت ذراع أخطبوطية عملاقة أرجوانية اللون! فأحاطت بوسطه, ثم جرته خارجا

وهو يصرخ أشنع صراخ حتى غـاص في أمعـاء الظلمـات, وبالطبع لم تمس واحدا منهم بأذى!

- "رفعت الجلسة!"

قالها رئيس المخفر بهذيان مراقبا شبح الرجل الغريب, الذي كان يتلاشى رويدا رويدا حتى اختفى عن الوجـود كـأن لم يكن..

نظر له (شاهر) قائلا بقساوة:

- لماذا لم تطلق النار؟

أجاب رئيس المخفر دون النظر إليه:

- كفاك مكابرة, لقد رأيت المخلوق الذي خطفه, لم يكن طبيعيا بتاتا..

- ربما لو كففت عن إرهابنا بتفريغ الرصاص في السقف..

- قلت كفاك مكابرة! جيل مزعج يحسب أنه عليم بكـل شيء!

سكت (شاهر), لكن (مشهراوي) لم يفعل, بل صاح بوجه محتقن:

- الفتى على حق, أنت لن تخسر شيئا لو حاولت! أطلـق النار على أية مصيبة تلج عبر هذا الباب في المرة القادمـة وإلا قضينا جميعا!

- في رأيي أننا في حكم الموتى ما لم تنفذ مشيئة الله, أليس كذلك يا شيخ؟

رمقه الشيخ (جبران) بنظرة صامتة دون رد, فتولى (راجح) الكلام نيابة عنه:

- وفي رأيي أنك نصبت نفسك مفتيا وقاضيا علينا, وأنت لا تملك الحق في..

- بل أملكه! أنا رجل القانون الوحيد بينكم..

تمتم (شاهر) ساخرا:

- والوحيد الذي يملك سلاحا!

- أتود تجربته يا فتى؟ هذا ما حسبته! اصمت إذن ودعني أقم بعملي..

على من الدور الآن؟

تبادلوا نظرات مفعمة بالتوتر, فتبسم رئيس المخفر متلذذا كأنها لعبة مسلية يستمتع بممارستها..

- "لا تبغون النطق؟ لا بأس, سأختار أنا إذن.."

ترددت الأدعية في رؤوسهم, ترددت وترددت حتى سمعوا اسم..

- "الحاج (راجح)! هلم اعترف بخطاياك!"

لم يحاول (راجح) إخفاء خوفه وهو يقول مهموما:

- لم أرتكب ما يستوجب الذكر ولله الحمد..

- أحقا؟ أكنت أمينا في تجارتك يا حاج؟

- والحمد لله..

- لم تخن الأمانة يوما؟

- مستحيل, أنا أخاف الله..

- تخاف الله!

ردد رئيس المخفر عبارته مستهينا, ومن ثم سأل القوم:

- هل ما يقوله صحيح؟

- وكيف لنا أن نعلم؟

- أنا أسألكم عن أي شيء, عن أية معصية ارتكبها (راجح) وشهدها أحدكم..

- لم يحدث أن صنع أمرا قبيحا, (راجح) رجل وقور ومشهود له بالكرم والأمانة, يكفي أنه زار بيت الله بعدد شعيرات الرأس..

انفجر الرجل ضاحكا حتى دمعت عيناه, وسعل بشدة وهو يصيح:

- سامحكم الله! حقا إنكم لحفنة من المنافقين!

كنتم تلوكون سمعة الرجل في كل سيرة أما الآن..

قال (مشهراوي) ساخطا:

- كنا نردد إشاعات نلنا جميعنا النصيب منها..

- كلام لا بأس به, إذن فجسار نقي السريرة معتنق لمذهب مكارم الأخلاق, ورجل عارف ربه ودينه أليس كذلك؟

- بلى!

بدا (جسار) مسترخيا منبسط الأسارير إلى أقصى حد الآن, لقد ثبتت براءته أمام الله وأمام القوم فمن اسعد منه؟

أو أنه كان كذلك قبل ظهور تلك الفتاة من العدم!

أول من أبصرها (مشهراوي), الذي تراجع للوراء مدمدما كالمصعوق:

- بسم الله الرحمن الرحيم! ربنا عافنا واعف عنا!

كانت الفتاة صغيرة السن, لكن قوامها ناضج وكأنه لامرأة, مليحة الوجه ممتلئة المفاتن, تعلو مسحة من الحزن والكآبة وجهها, كما أنها تفرد شعرها الكستنائي الطويل والناعم على عينها اليسرى..

كانت ترتدي قميص نوم أبيض يكشف عن ركبتيهما وكتفيها, مشكلته الوحيدة أنه ملطخ بالدم من جهة البطن!

استعاذوا بالله من الشياطين حتى كلت ألسنتهم, أما رئيس المخفر فقد رسم بسمة محنكة على شفتيه قائلا بمكر:

- إذن من تكون هذه يا حاج؟

- لا أعرفها! لا أعرفها!

- كلكم تكررون ذات الكلام وفي النهاية..

من هذه الحلوة يا حاج؟ فتاة أسأت إليها؟ لطخت سمعتها؟ قتلتها؟

تكلمت الفتاة..

بصوت حزين ودموع كحل سود هطلت من مقلتها المكشوفة للعيان صاحت:

- طفلي! أين طفلي؟

ارتعشت أطراف (راجح) وهو يصرخ:

- اغربي عنا يا شيطانة!

قال رئيس المخفر محتدا:

- صه! دع الفتاة تتكلم!

وواصلت الفتاة الانتحاب وهي تصرخ:

- طفلي الذي أجهضته بالقوة يا مجرم! أين طفلي أين هو؟!

- طفل مجهض إذن! أهو غير شرعي يا حاج؟ آه! أتسمع أصوات الطرقات؟ تبدو لي كأصوات مطرقة القاضي!

صرخ (راجح) كالمجنون:

- كذب! كذب! أنا لا أعرف هذه الفتاة! لا أعرفها!

وبتوتر قال (شاهر) مخاطبا رئيس المخفر:

- يبدو صادقا يا سيدي, أرى أن..

- صه أنت أيضا! هل تأثرت بسهولة؟ ألم تسمع الاتهام؟ ألم تسمع صوت الطرقات المروع؟ لقد أدين هذا الرجل ولا رجعة في حكم أصدر بقضاء رباني!

هل ستعترف يا (راجح)؟ أم ستكابر وتماطل كما صنع (حسار) ومن قبله المرحوم (جعفر)؟

لم يستسلم (راجح), بل صرخ مهددا بقبضته:

- يا فجّار! أنتم قلتم أن سمعتي عطرة, أتصدقون وهما؟ أتصدقون شيطانة متنكرة؟ إنها تابعة لإبليس اللعين! جنية أرسلها لتدميرنا جميعا!!

- الجواب بلا, لا بأس, أتود فتح الباب أم نجرك إليه جرا؟

- إليكم عني!

وتراجع والشراسة بادية على ملامحه, فهتف رئيس المخفر:

- دليل إدانة جديد! ليت أحدكم يعترف! ليت أحدكم يثبت رجولته ويجرؤ على الاعتراف! كلكم أوغاد تخفون من المصائب ما يكفي لملء آبار!

- "أين طفلي؟ هذا الرجل قتل طفلي!!"

- من كانت يا (راجح)؟ زوجة طلقتها أم عشيقة نبذتها!!

- هي كاذبة!! كاذبة!!

- تريث يا سيدي أرجوك!

وبازدياد صوت الطرقات على الباب ساد الهرج والمرج..

٥

تحول فم (مشهراوي) إلى مدفع لإطلاق القيء, أما الباقون فقد ظلت أبصارهم معلقة بالباب المفتوح الذي أرجحته الرياح..

لم يكن (راجح) بينهم, وبالطبع اختفت الفتاة بعدما أدت مهمتها التي ظهرت لأجلها..

ربت (سعد) على ظهر أبيه متسائلا بقلق:

- أبتاه, أأنت بخير؟

- بخير؟ أي خير وأي.. ألم تكن تشاهد؟ ألم ترى ما أصاب عملك الحاج المسكين؟

تفوه (مشهراوي) برعب هائل وهو يمسح فمه:

- أكانت تلك المخلوقات المشوهة.. أطفالا؟!

ردّ رئيس المخفر متجهما:

- بدوا لي كذلك, لولا مخالبهم المروعة ووحشيتهم..

- أعوذ بالله من غضب الله! لكنهم لم يمسوه بسوء, فقط جروه خارجا, ماذا تراهم يصنعون به؟

- ينفذون عقاب الله به طبعا..

- على ماذا؟ ما الذنب الذي اقترفه الرجل؟

- ألم تفهم بعد؟ تلك المخلوقات كانت أطفاله! يعلم الله كم من النساء عرف ذلك الرجل, يعلم الله كم تزوج منهن أو عاشر بالحرام, يعلم الله كم من الأطفال أجبر نساءه على إجهاضهم مخافة الفضيحة!

- أعوذ بالله من غضب الله! كيف تبدو واثقا هكذا! نحن لا نرى إلا كوابيس وعفاريت وأشباح!

- كلهم مرتبط ببعضه! الأشباح هي الضحايا, والشهود نحن, أما ما يأتي عبر هذا الباب فمتمثل بالعقاب! ويبدو وأن الجزاء من جنس العمل!

في قرارة نفسه آمن (شاهر) أن الرجل لم ينطق إلا بالصدق, ما رآه يؤكد ذلك, يبدو وأن الظلام قد حل على البلدة ولن يغادرها إلا إذا اعترفوا جميعهم بخطاياهم وتقبلوا العقاب المروع على ما اقترفوه من ذنوب..

لكن لماذا؟ لماذا يجبرهم الطاغية على فتح الباب في كل مرة؟ إنهم يملكون الحق كل الحق في الذود عن أنفسهم..

هكذا تنحنح وهو يرمق رئيس المخفر بنظرات حازمة..

- "ماذا تريد هذه المرة يا فتى؟"

- "سيدي, لقد بدأت أقتنع بموقفك.."

- "حمدا لله!"

- "لكن.."

وتأمل الوجوه المتربصة به, وسمع رئيس المخفر يتساءل بنفاد صبر:

- لكن ماذا؟

- يحق لهؤلاء الدفاع عن أنفسهم, أقصد نحن, فنحن لسنا مجرد أضحيات وقرابين تقدم للمحرقة كلما أوقدت نارها..

- إلام ترمي؟

- ما دمت قد نصبت نفسك قاضيا وجلادا في آن واحد, فاسمح لي – على الأقل- أن أكون محاميا!

- ماذا قلت؟

بدا وكأنه سيسخر منه بعبارت مهينة, إلا أنه صمت مقلبا الموضوع في ذهنه..

وفي النهاية رسم بسمة على شفتيه قائلا برضا:

- لا بأس, هذا حقكم, وإن كنت أرى أنك تضيع وقتك سدى, فالعدالة الإلهية ليست بحاجة إلى أعذار وتبريرات بشرية..

- سأتحمل أنا المسؤولية..

- لا أدري كيف ستفعل لكنها مشكلتك الآن..

- شكرا..

نظر رئيس المخفر إلى الوجوه المتحلقة متسائلا:

- أتقبلون به محاميا يذود عنكم؟

تبادلوا النظرات قبل هزهم رؤوسهم علامة الإيجاب.. لا خيار لديهم..

- "إذن من الآن فصاعد سيكون الأمر نظاميا كما لو كنا في قاعة المحكمة, ولن نفتح الباب حتى ولو حطمته الوحوش إلا عند التأكد من إدانة المتهم!"

بدا الخلاص على الوجوه وكأنما الظلمات قد انقشعت أخيرا, فنظر رئيس المخفر إليهم وقد ارتسم تعبير صارم على تجاعيده شبه الغائرة..

- "(سعد)!"

انتفض الفتى المشاكس حتى لكاد يختل توازنه, في حين شحب وجه والده وهو يلتفت إلى رئيس المخفر صائحا:

- ولماذا هو؟

- لأني أريد الانتهاء بسرعة..

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن خطايا ولدك بعدد شـعر رأسـه! ولا يمكـن إحصاؤها أبدا!

- حاكمني أنا ودعه..

- سيحين دورك بعده.. والآن يا بني, ما قولك بالاعتراف وتوفير الوقت على الجميع؟ كن رجلا وتقبل مصيرك ببسالة..

قال (شاهر) مقاطعا:

- بعد إذنك سيدي, أرى أن تترك لي مهمـة اسـتجواب (سعد)..

- لا بأس إذا ناديته بالمتهم..

- وهو كذلك.. أرجو من المتهم أن ينظـر إلي ويتناسـى البقية..

للمرة الأولى يجد (سعد) نفسه ينظر إلى (شـاهر) مناشـدا ومتضرعا, فلم يشمت الأخير أو يتشفى, فقد كان صـادقا في عونه ومحاولة إنقاذه..

قال له (شاهر) برفق:

- اسمعني, لابد وأن خطاياك لا تعدو مجرد السباب ومضايقة الفتية الأصغر سنا والأضعف بنية أليس كذلك؟

- أجل..

- متأكد؟

- نعم..

- لا بأس, اعترف إذن بخطئك, وبإذن الله لن تعاقب على مثل تلك الهفوات..

قال (سعد) دامع العينين:

- أعترف وأقر بذنبي, لقد ضايقت كثيرين وأنــا آســف لذلك حقا..

- وأنا أصدقك..

بدا الجميع مرتاحا لسماع ما يدور, وبالأخص (مشهراوي) والد (سعد) الذي كان مؤمنا بنجاة ولده رغم أفاعيله الطائشة, فهي مجرد أفاعيل طيش وتهور لا يمكن أن تؤذي أحدا..

كان متعلقا بذلك الأمل عندما اندلعت النيران!

نيران حقيقية لا مجازا! شعر الجميع بحرها ولفحها, فصرخوا بآن واحد:

- "ماذا يحدث بحق الله؟!"

برقت عينا رئيس المخفر وهو يقول بظفر:

- آه! يبدو وأن المتهم كان يكذب! ألديك ما تخفيه عنا يا فتى؟

بدا (سعد) ممتقع الوجه, ثم بدا مصدوما مرتعبا لأقصى درجات الرعب لما أبصر رجلا مسنا مندسا في فراش, ويرمق الفتى بنظرات الاتهام!

- "لكن لحظة, أليس هذا الحاج (سعفان) الذي قضى في الحريق قبل أعوام؟"

نظر الشيخ (جبران) إلى ملامح الرجل, حدق في لحيته الرمادية وعويناته الضئيلة التي لطالما استخدمها المرحوم في تلاوة القرآن الكريم في جوف الليل, وبدهشة عارمة تمتم:

- هو بعينه! الرجل الطيب كان مشلولا, وقد قلت في تقريرك أن الحريق نتج عن إهمال منه كلفه حياته, إلا إذا..

وصمت متسع العينين, ثم رمق الفتى بفاه مفغور, فحذا الجميع حذوه..

وهنا.. انهار الفتى جاثيا على ركبتيه, وقد أخذ ينتحب ويلطم كالنساء صارخا:

- كان حادثا بالفعل, مجرد حادث!!

أغمض (شاهر) عينيه متألما وقد أدرك الأمر كله, ثم تمتم محاولا التماسك:

- ماذا فعلت يا (سعد)؟

- ألقيت بالسيجارة عبر نافذته بغية إفزاعه قليلا, فما ان شاهدت ألسنة اللهب المندلعة حتى استبد بي الرعب.. قد كان حادثا, لم أقصد إيذاء الرجل!

تألقت عينا رئيس المخفر ما إن تناهى إلى مسمعه صوت طرقات الموت, فهتف كالمنتصر:

- لكن العدالة تخالفك الرأي أيها الفتى, لقد ارتكبت جريمة مروعة, وأكاد أشمئز كلما فكرت في كيفية تحملك تأنيب الضمير كل تلك السنين, إن بداخلك بذرة مجرم محنك!

وكالمصدوم التفت (مشهراوي) إلى ولده قائلا كالمحطم:

- لابد للحقيقة أن تتجلى يوما مهما حاولنا إخفائها!

- أبتاه؟!

- ألا لعنة الله عليك! ألا لعنة الله على الدنيا كلها..

ثم فاجأ الجميع باندفاعه صوب الباب, وبكل ما أوتي من عزم فتحه..

*****

غريب ألا يحاول الابن حماية أبيه, أو أن يصرخ به على الأقل ألا يرمي بنفسه في أحضان التهلكة من أجل ذنب اقترفه هو..

لكن (سعد) راقب هرولة والده ناحية الباب وبارقة أمـل تشع من عينيه المتسعتين, وكأنه يتأمل طوق النجاة الذي ألقي إليه وسط عاصفة هوجاء في عرض البحر..

انقبض قلبه عندما خرج والده إلى الظلمات, وظل ينـصت لخفقاته القوية التي بدت جد مسموعة لأذنيه, وبخاصة عقـب توقف الصراخ والحريق والطرقات.. ووالده!

- "لقد جن الرجل!"

قالها رئيس المخفر في سخرية مندهشة, لكنهم لم يبالوا بمـا قاله وهم يحدقون بالباب غير مصدقين..

تهامسوا وكأنهم يخشون الهلاك لمجرد النطق:

- هل مات؟

- لا اسمع صراخه..

- ابتلعته الظلمات إذن, لن يعود..

- من يدري؟ لعله يرجع, لا أحسبه ممن اقترفـوا خطيئـة كبرى..

دوت ضحكة ساخرة مجلجلة, فالتفتوا مستغربين واجمـين صوب رئيس المخفر..

- "ألم تفهموا بعد يا حمقى؟ الرجل علم بجريمة ولده وتستر عليها! ما بالكم؟ ألا تنصتون؟ ألم تسمعوا ما قاله؟ أوليس هذا ما حدث يا فتى؟"

ورمق (سعد) بنظرات قاسية وهو يقول بخشونة رافعا سلاحه:

- اجب يا فتى..

طأطأ (سعد) برأسه مجيبا بتخاذل:

- صحيح..

- أحسنت! والآن اخرج وابحث عن أبيك..

- لن أخرج..

- بل ستخرج رغما عن انفك!

- قلت لن أخرج!!

في تلك اللحظة, قذف بجسد ملطخ بالدم عبر الباب, كأن الظلمات نفسها لفظته!

كانت جثة (مشهراوي) وقد تشوهت تماما بفعل مخالب حادة أو شيء من ذاك القبيل, ولربما كان نصل مدية لسفاح مريض, المهم أنهم لم يتعرفوه إلا من ثيابه!

ومن جعبته استخرج (سعد) مطواة ماضية النصل انقض بها على رئيس المخفر وهو يصرخ كالمسعورين, فانشده الرجل للحظة أطلق بعدها النار على صدر الفتى!

- "ماذا فعلت؟!"

كذا صرخ (شاهر) فيما كان (سعد) يتهاوى معتصرا صدره المخضب بالدم, فانحنى مسار تصويب السلاح إليه هذه المرة, مع صراخ عصبي لا يمزح:

- اخرس! إنك حقا تثير أعصابي أيها الغريب, أتود اللحاق به؟ أقسم أن أنفذ رغبتك إن لم تصمت..

- تدعي العدالة وأنت مجرد طاغية يهتم لنفسه فحسب..

وعضّ (شاهر) شفته السفلى قهرا حتى أدماها وهو يرمق جثة (سعد) بضيق وتحسر, ثم همس معتصرا قبضته اليمنى:

- سيعاقبنا الله لأننا لم نحاول إنقاذه من هذا المجنون!

سمعه رئيس المخفر, فأمره بصرامة عاتية أن يحمل الجثة ويلقيها للظلمات.. رفض (شاهر) الانصياع بادئ الأمر, لكن طلقة بين قدميه أجبرته على الإذعان ممتعضا..

- "من الآن فصاعدا لن يكون هنالك تردد من أي نوع, من يرفض الخضوع لمشيئة الله سيموت من جراء رصاصة, أسمعتم؟"

وأشار بفوهة السلاح إلى الطبيب (سائد) باحتداد, فتبدت رهبة على وجه الأخير وهو يرفع كفا مهدئة مغمغما:

- لا داع لتهديداتك الجوفاء, سأقر وأعترف بكل شيء!

٦

الكل أجمع أن على الفتى المثالي أن يكون خلوقـــا مطيعـــا لوالديه ومتفوقا في دراسته إضافة إلى عوامل أخرى..

والدة (سائد) كانت مقتنعة أن ولدها كذلك وأكثر..

وحدتها منذ وفاة زوجها جعلتها تعتبر وحيدها رجل البيت, ولقد عوضها كثيرا عن الحب البشري الذي افتقدته منذ فترة..

حين تستيقظ من النوم تجده قد حضّر وجبة الإفطار بنفسه, بيض مقلي, دائما البيض المقلي فهو لا يجيد تحـــضير أطبـــاق أخرى.. يناولها قدح القهوة قائلا بابتسامة لطيفـــة شـــوهتها السيجارة المتدلية من بين شفتيه:

- صباح الخير أيتها الأميرة النائمة!

تبتسم, وتتركه يقبّل جبهتها وهي ترد:

- أميرة مرة واحدة؟

- علي الإسراع إلى الجامعة اليوم..

- هل ستذهب برفقة (مجد)؟

- إنه صديقي الوحيد..

- يجب أن تكون صداقات عديدة يا بني..

- كلما قلّ معارفي ازددت حرية, ثم أنك بمثابة الصديق لي أيضا!

ونهض بعد أن أطفأ سيجارته البغيضة مقتربا من والدته, فعانقها بقوة وهي تغمغم له مشفقة:

- ما يهمني هو سعادتك فقط..

صوت جرس الباب, فأسرع يقبل جبهتها مرة أخرى قائلا بعجلة:

- وصل (مجد)..

- وفقك الله يا بني..

أسرع يفتح الباب ليطالعه وجه صديقه العابس على الدوام.. فقال له بعبوس مماثل:

- تبدو بحال مزرية, هل كنت ساهرا؟

- حتى مطلع الفجر..

- على ماذا؟

- أفلام إباحية!

- هنيئا لك!

وتجاوزه مندفعا في طريقه, فلحق به رفيقه قائلا:

- لحظة واحدة..

توقف, والتفت مواجها (مجد) الذي توقف هو الآخر قبـــل أن يواجه (سائد) بنظرات معاتبة..

- "أأنت تتهرب مني حقا؟"

سكت (سائد) وهو يهز كتفه, فسأله (مجد):

- ما الذي أصابك؟ من تراه وسوس لك ضدي؟

- لا أحد..

- لا أحد؟ لماذا تتجاهلني إذن؟ ماذا فعلت لك؟

- أنت لم تفعل شيئا, لكني أفضل البقاء وحيدا هذه الأيام..

- وحدك مع رفاقك الجدد أليس كذلك؟

- وما شأنك أنت؟

- أنا صديقك, ومن مصلحتك الإصغاء إلي..

- أنت لم تعد كذلك بعد اليوم, اتفقنا؟

وعجّل بالسير متجاهلا نظرات (مجد) المفعمة بالبلاهة..

*****

(سائد) في المقهى مع رفيقه الجديد الذي يعلق حول عنقـــه قلادة فضية على صورة جمجمة..

قال الفتى وهو يشفط همة دخان "الأرجيلة":

- فكر بعقلانية.. (مجد) المتطفل لا يريدك صديقا بـــل أداة للتفكه, قد يكون في كلامي إهانة لك, لكن الإهانة الأكبر أن تستسلم للقيل والقال الذي أتى عن طريقه!

- الحقير لا يريد تركي بسلام! لا يـــضيع فرصـــة شـــرح مشاكلي وكشف أسراري لكل من هبّ ودب!

- لعنة الله عليه!

ورمق الممر الفارغ من البشر..

- "لم أتوقع أن تزورني هنا!"

- "كنت ذاهبا للجامعة وبدلت رأيي, ما الفائـــدة؟ فأنـــا راسب بكل الأحوال.."

- "هل أطلب لك واحدة؟"

- "معي سجائري.."

ضحك الفتى وهو يعدل الطاقية فوق رأسه هامسا بتخابث:

- أنت كائن نادر حقا!

- ماذا تعني؟

- أعني أنك خلقت للحرية مبكرا! أنا أحسدك!

- على السجائر؟!

- السجائر هي الحياة!

*****

جلس (سائد) مع من يدعى (رزق) في مطعم لا يمتاز بالنظافة, حيث عبثت الجرذان من حولهما في قمامته..

جلسا يلتهمان شطائر الكبدة بالشطة, (رزق) كان يسند دراجته البخارية العتيقة بالقرب منه قائلا لسائد:

- لولا دراجتي الغالية ما فدتك بشيء.. ثم تأتي لتقول لي: ضعها في متحف؟

- أنا أقول هذا لمنجزاتها العظيمة!

ناوله (رزق) وريقة ملوثة بالزيت قائلا بفم ممتلئ:

- هذه هي العناوين, لا تحد عنها وستنال رزقا وافرا..

- لست مبرمجا كباقي الروبوتات البشرية على طاعة النظام! لابد من الترجل أحيانا كي ننال مبتغانا..

- يبدو لي وأنك ستذهب إلى السجن هذه المرة..

- جميل أن يكون قلبك علي, لكن كفّ عن نعيقك ولو قليلا..

ثم قال وعيناه تشردان:

- أوضاع هذا العالم أوضاع! تعايش أوضاعا حتى تجن أو تصاب بالاكتئاب, وأخرى تتمنى حدوثها لك حتى وإن كانت مؤذية..

- لم أفهم, إنك تفلسف الأمور..

لم يملك (سائد) تفسيرا يمكن إفهامه لعقل كعقل رفيقه الأبله, كان يتلو تلك العبارات على مسامع شبان في مثل حال (رزق) فينبهرون به أحيانا, تحصيلهم العلمي معدوم أو شبه معدوم, وقد كان هذا يناسبه, فكراهيته للمتحذلقين المتعلمين تعليما مناسبا جد عظيمة, فهم يجيدون استحضار أسماء ومصطلحات قد يجهلها..

أما أمثال (رزق) فيجاهرون بجهلهم من دون حرج, فهو من البسطاء الذين لا يفهمون سوى حلول سبل العيش, وعقليتهم محصورة في ادخار القروش وكسب النساء الممتلئات لأنهن أكثر إغراءا وشبقا! وملء بطونهم بالطعام الرخيص وإن كان غير طيب المذاق..

و(سائد) يحب أجوبة (رزق) الخاوية, فهي بداية لمعارك كلامية من طرف واحد..

لكنه لا يملك الوقت الكافي للعراك الآن, عليه الاهتمام بعمله أولا..

أشعل سيجارة متناولا كيس النفاية الأسود بجانبه, وحيا (رزق) قبل انطلاقه بدراجته البخارية التي طلب استعارتها منه.. كان (رزق) قد وافق مادام سينال "حلاوة" لقاء ذلك..

قادها (سائد) بحذر, فهو لم يكن بارعا بقيادة السدراجات البخارية..

ظل يقودها حتى قطع مسافة إلى حي بعيد متعدد البنايات, ثم توقف متواريا بها وراء إحداها, واستبدل ثيابه بالتي داخل الكيس, ثيابه الجديدة كانت بالية ممزقة..

صعد السلالم حتى بلغ أول شقة, ودق جرس الباب مرات حتى فتحت له سيدة بدينة ينبعث منها رائحة سمن الطهو..

- "من أنت؟ وما الذي تريده؟"

- "حسنة لله.. حسنة لله.. أنا فقير ومسكين! أعرج بعد حادث كسر ركبتي!"

وأقرن كلامه بنهنهة مصطنعة حراقة للقلوب, لكن المرأة لم تنخدع..

- "ما شاء الله! لم تعودوا للتسول في الشوارع, صرتم تصعدون إلى الشقق أيضا!"

- "حسنة لله الله يخليك.."

صفقت الباب في وجهه قائلة بلهجة شديدة:

- الله يعطيك..

بصق على الباب بصقة هائلة قائلا بامتعاض:

- أخذك الله إلى سعيره يا بغيضة الرائحة!

*****

على كرسي غير مريح وضعوه في غرفة مليئة بشهادات التقدير لرجال الشرطة..

مع أن الحجرة تشابه حجرات التحقيق إلا أنه لم يشعر بوجوده داخل قسم من أقسام الشرطة, استعمل أسلوب النعامة التي تدفن رأسها في الحفرة.. كل هذا مجرد كابوس سقيم! كل هذا يحدث لشخص آخر لا لي!

لم يشعر بالتوتر أو الخوف فتلك أمور تافهة في نظره.. الخواء.. هذا ما شعر به! الخواء وتساؤلات عن كيفية انتهاءه بتلك البساطة داخل حجرة تحقيقات في قسم الشرطة..

فتح الباب ليدلف ضابط كهل يحمل كوب قهوة من البلاستيك, رسم على ثغره بسمة واجمة مداعبا فتحة أنفه بظفر خنصره الذي يطيله كطرف المفك, وجلس مواجها إياه قائلا بتؤدة:

- إخص! شاب مثلك؟ يا للأسف!

بقي (سائد) صامتا, فتنهد الضابط متناولا من علبته سيجارة وضعها بين شفتيه, أشعلها وسحب نفسا وهو يتابع بناظريـــه الفتى, ولم يعرض واحدة عليه لسوء الحظ.. عليه بالتماســـك الآن وإلا انهار..

- "شاب مثلك ويعمل بالشحاذة؟ ما الذي أصاب الدنيا؟"

- "أنا لم.."

- "ضبطناك متلبسا وبالجرم المـــشهود, لا تـــضيع وقتنـــا واعترف.."

عيناه لا تفارقان الفتى, تحاصراه في كل مكان, في حين قال الفتى بعد التردد الذي بان عليه:

- أعطني سيجارة وسأعترف!

- سيجارة؟ لا بأس..

وببساطة ناوله سيجارة بل وأشعلها له, فـــدخن (ســـائد) بأنامل مرتجفة والضابط يقول له ضاغطا زرا على سطح مكتبه:

- خذ راحتك..

دلف عريف أدى التحية, فقال له الضابط:

- أحضر قهوة للضيف..

- سادة أم سكر زيادة سيدي؟

نظر إلى (سائد) الذي أسرع يقول:

- سادة..

رحل العريف بعد أن أدى التحية مجددا, فتجاهل الضابط وجود (سائد) منشغلا عنه بتقليب ملف كان بين يديه, وظل صامتا حتى طرق الباب ودخل العريف..

كان يحمل خيزرانة مربعة الشكل وحبلا! فألقى (سائد) بالسيجارة بعيدا وهو يثب كالجرادة صائحا:

- ماذا ستفعلون بي؟!

- ماذا؟ ألم تطلب قهوة سادة؟

ثم انقضا عليه.. كبلا ساقيه بالحبال وقام العريف برفعهما, في حين انهال الضابط بالخيزرانة على قدميه الحافيتين صائحا بغضب مخيف:

- تشحذ يا نفاية؟! تشحذ يا حثالة؟!

- خلاص! آخر مرة! أقسم بالله العظيم!!

- لا تقسم يا حثالة! سأجعل منك عبرة!

- الرحمة!!

ومن ثم انقلبت صيحات الاستعطاف إلى صراخ هستيري يشتعل غضبا:

- يا أوغاد توقفوا! يا مجانين!! يا ملاعين!!

- نحن ملاعين يا نفاية؟!

تحول الضرب إلى معركة, صار أقوى وأشرس, وصار التوقف أمنية خالصة من أعماق القلب..

ثم أتى الانهيار أخيرا, فالبكاء والنحيب, ورغم ذلك استمر الضابط, استمر حتى تيقن من هزيمة الشاب هزيمة مجحفة..

جلس على طرف مكتبه لاهثا متعرقا قبل ابتسامته..

- "لقد أتعبتنا!"

*****

بدا وكأن الطبيب قد فرغ من تسجيل اعترافاته شفهيا أمام البقية الباقية من الأحياء..

تمعن رئيس المخفر في ملامحه قبيل تبسمه مندهشا..

- "لطالما تسترت السواهي بالدواهي!"

بدا (سائد) خجلا وهو يتمتم متحسسا مؤخر عنقه:

- لكنني اجتهدت فيما بعد وأقلعت عن ارتياد المقاهي وتحصيل مصروف الجيب بالشحاذة, فدرست ونلت بعثة وعدت بشهادة طب!

- أهذه جل خطاياك؟

- ذات مرة قذفت حجرا على قط ضال فأصبته في رأسه, ماذا تريد أكثر؟

- أنت.. ولكن لا بأس! إنها جنازتك, ولن يسير بها أحد سواك فهلم اخرج!

راقبوه صامتين متوجسين, وقد توقع معظمهم انهياره في أية لحظة, لكنه خيب توقعاتهم لما فتح الباب وخرج بكل طمأنينة وثقة بالنفس!

ظلوا على صمتهم وقد أصاغوا السمع جيدا, وفي هذه المرة توقعوا جميعهم سماع أصوات صراخ, أو رؤية جثة ممزقة لأشلاء تعود إليهم عبر الباب..

إلا أن انتظارهم طال وطال, وفي النهاية قال (شاهر) بهمس خفيض:

- لقد نجا الرجل! كان صادقا في كل اعترافاته فغفر الله له..

- "ربما!"

نظر (شاهر) إلى رئيس المخفر, فوجده عابس الوجه وكأنه متضايق لنجاة الرجل, واسترسل رئيس المخفر محدقا في قدميه الحافيتين إلا من جوربين أسودين:

- ربما كان موته هادئا نظرا لتفاهة خطاياه! على من الدور الآن؟

- أنت تتمنى هلاكنا جميعا!

تبسم الرجل بسمة عصبية دون أن يرد, فتوجـــه (شـــاهر) بحدقتيه صوب الباب قائلا بحزم:

- فليكن ما حدث عبرة لنا, طريق النجاة بات واضحا, من الآن فصاعدا لا مزيد من الأسرار والخفايا, لا مزيد من التستر على الفضائح والجرائم..

نظر رئيس المخفر بدوره إليهم:

- "حسن! لم يتبق سوى ثلاثة, فما رأيك أيها الفيلـــسوف بالبدء؟"

قال (شاهر) بعينين مغمضتين:

- حكايتي أنا؟ حكايتي طويلة.. طويلة للغاية..

- ونحن نملك كل الوقت الذي في العالم!

- وهو كذلك.. سأقص عليكم كل شيء..

٧

عندما أنهى (شاهر) حكايته, رفع وجهه متـــأملا رئـــيس المخفر بالذات..

سال عرق الرجل غزيرا, وبصوت تحشرج وبشدة تـــساءل وقد بدا وجهه محتقنا:

- أي حكاية هذه أيها الفتى؟!

- إنها.. حكايتي!

بدا مختلفا, كان أكثر ثقة وتصميما, وعندما دنا شهر رئيس المخفر المسدس في وجهه, لكنه بدا غير مبال وهو يواصل الدنو منه قائلا بتهكم:

- هلم اسألني عن التي رأيتها في الغرفة داخل المصح!

- إليك عني!

- أيها التعس! ألم تفهم بعد؟ إنه الاعتراف! كان يتوجـــب عليكم الاعتراف للنجاة من ظلمات العقاب المروع!

اختنقت حروف كلمات الشيخ (جبران) عندما تساءل:

- من التي رأيتها داخل الغرفة وجعلتك تولي الأدبار بهلع؟

- رأيت..

عندئذ حصل الزلزال المريع, ومن حــول رئـــيس المخفـــر تشققت الأرض بعنف!

*****

صرخ رئيس المخفر كالمجنون:

– لا أستطيع التحرك! أوقف ذلك! أوقفه!!

وصوب السلاح مطلقا رصاصة طائشة, فلم يأبه (شـــاهر) لذلك قائلا بوجوم:

– قد كابرت وكابرت ولم تعترف, نصبت نفسك القاضي والجلاد وأنت نفسك من المذنبين.. والآن آن أوان العقاب!

– أنا لم أرتكب إثما! سنين بعدد شعر الرأس كنت ولازلت شرطيا شريفا ومتفانيا في عمله..

– ولا زلت تكابر؟!

وهنا انهارت الأرض أسفل الرجل, فسقط مطلقـــا أعـــق صرخة ممكنة محاولا التشبث بأي شيء..

إلا أن الظلمات كانت الأسرع فابتلعته بلا هوادة..

*****

سعل وبشدة, فأدرك بأنه لا زال على قيد الحياة..

ثمة رضة مؤلمة كجمرة عالقة في ركبته, فتحسسها ضاغطا أسنانه لكتم صيحة الألم الممض, وعقب اعتياد بصره العتمة تلفت من حوله مرتعدا والعرق يطفو على جلده..

أبصر رأسا عملاقا لحيوان رنة بالقرب من خزانة تخص مصحا ما, إلا أنه كان محطما بعنف, مثله مثل أركان المكان وأثاثه المغطى بكتل الغبار السميكة وشباك العناكب!

سمع صوت رنين أفزعه بشدة, فتلفت ليجد جرسا صدئا على طاولة الاستقبال, ضئيل كالناقوس, كان زره المعدني يضغط من تلقاء نفسه!

صرخ:

– أنا لم أرتكب إثما!! لم أرتكب إثما!! لسنوات كنت شرطيا يشهد له الكل بالكفاءة!

– " أنا لم أرتكب إثما!"

بلغ مسمعه ذلك الصدى الساخر المروع, فتلفت حوله كالمصدوم باحثا عن مصدره..

وإذ بباب إحدى الغرف يتحطم بعنف, وشاهد ببصر مصعوق غير مصدق بدن ثعبان أسود هائل, حجمه يفوق التصور, عيناه الضيقتان كدبوسين كانتا تلتمعان في الظلمات كأعين الهررة أو الضباع!

كان الثعبان يزحف بسرعة مذهلة, وعرج التعس بخطوات متخبطة مرتعبة وهو يصرخ كمن جنّ أخيرا..

استشعر الصمت أخيرا, ولما التفت ساكنا متعجبا فـوجئ وبوغت بأنياب خنجرية لا مثيل لحدتها تنهش معدته على نحـو مقزز, فجر الألم الجنوني المسعور في أوصاله وبين ثنايا عقله!

*****

– "الرحمة!!!"

أفاق ليجد نفسه على قيد الحياة, معدته سليمة لم يمسـسها أي سوء!

– "مجرد كابوس لعين! مجرد.."

فوجئ بذات الرضة, وبوجوده في ذات البقعـة المظلمـة والمهجورة من المصح المخيف..

سمع بأذن غير مصدقة صدى رنين الجرس, وبرعـب أشـد ذات صدى الصوت الساخر:

– " أنا لم أرتكب إثما!"

وبرعب يفوق سابقيه انفجر باب الحجرة نفسها ليخـرج ذات الثعبان الرهيب الأسود الذي زحـف بـسرعة تفـوق سابقتها, وقد كان مدركا مكان ضحيته بذات الدقة..

وعندما أطبق بأنيابه على معدة رئيس المخفر هـــذه المـــرة أيضا, رفع الأخير عقيرته بالصراخ وقد أدرك أخـــيرا العـــذاب الأبدي الذي ظفر به..

٨

قال (شاهر) وسبابته مصوبة نحو الشيخ:

- ماذا عنك؟

- لا شأن لك بي!

- أتقصد أنك ضامن نجاتك أنت الآخر؟

- بالطبع!

- يا لها من ثقة عجيبة بالنفس..

- لماذا؟ ألا تمتلكها أنت الآخر بعد الصفقة المزعومة التي عقدتها؟

- لا يمتلكها سوى أحمق أو مغرور, نحن في موقف هو الأصعب على الإطلاق, وليس بإمكاننا الوثوق بشيء..

- يمكنك التحدث عن نفسك, بإمكانكم التحدث عن أنفسكم, لكنني واثق من نجاتي, فأنا عبد من عبيد الله وبيته..

- أو أن هذا ما تظنه..

- أنا أعلم! بل مؤمن!

- تتحدث كمن شعر بمنجل الموت يتحسس عنقه.. لماذا؟ ماذا فعلت من خطايا كي تتحدث بهذا الشكل؟

- خطاياي هي خطاياي, ولن أجاهر بالمعاصي أبدا..

- إذن فثمة خطايا في حياتك المفعمة بالتقوى! يالهـــا مـــن مفاجأة!

ظل الشيخ (جبران) صامتا والضيق على وجهه, فطفح وجه (شاهر) ببشر غريب وهو يهتف مشيرا له بسبابته مجددا:

- هلم أتحفنا بمصائبك! من الواضح أنك كارثة بقدمين يـــا شيخ!

- أنا لا أسمح لك!

- وأنا لا يهمني..

كان مضطربا, فأومأ (شاهر) برأسه قبل أن يقول:

- لا بأس, فالمصائر باتت شبه محددة..

وبدا وكأنه سيظل واقفا حتى مماته, لكنه في النهاية خرج..

ومثلما حدث مع الطبيب مرت دقائق عديدة دون أن يسمع الشيخ صراخا أو يرى جثة تعود ممزقة مشوهة!

*****

- "فليأخذني (عزرائيل)!"

تأمل الشيخ (جبران) الباب الذي خرج منه (شاهر) مطولا, شعر بالارتياح أخيرا لخروج الفتى المخيف, وأطل ببصره داخل الحفرة التي لازالت ظاهرة ذات قعر مظلم لا يمكن تبينه أبدا..

ثم رمق الصبي المتزوي خوفا بنظرات تفيض حنوا ولطفـــا, وقال بدفء كأنما يخاطبه:

- "مات الشرير المكابر! مات المدعي الـــشيطاني محــاولا إقناعنا أنه أفضل الجميع خلقا, مات وبقيت أنا, العبد الصالح!"

وحدق بالسقف متنهدا براحة جمة, ثم عاود تأمل الـــصبي الصامت..

مرت دقيقة كاملة وهو يطالعه, ولما انحلت عقدة لسانه سأل الصبي:

- إذن.. هل تود الاعتراف أنت الآخـــر؟ أم تـــود سمـــاع اعترافي أنا؟

ثم دنا منه ببطء, فزاد الصبي من التصاقه بالجدار..

- "لا تجزع هكذا مني يا بني! أجل.. لكل منـــا خطايــاه! ليست المشكلة في الاعتراف, بل في التوبة النصوح!

وأنا قررت.. قررت أن أتوب توبة نصوح.. من جديد!

كانت توبتي الأولى قائمة منذ سنوات عـــشر, صـــمدت وأبليت في الصمود.. والآن حان الوقت لنيل مكافأة بـــسيطة على ذلك الصمود المضني.. وبعدها.."

كان قد بلغ الصبي, فركع ليداعب بأصابعه شعره النـــاعم بشوق مهووس هامسا:

- توبة نصوح لا رجعة لها! أنا أعدك! هذه المرة فقط!

رباه! كم أنت صبي جميل! ابن من أنت؟ لا تخف! أنا لـــن أؤذيك!

- "لا تلمسه!"

جمد الدم في عروق الشيخ, فنهض من ركوعه قبل التفاتـــه البطيء للوراء..

عندها وقع بصره على (شاهر) الذي وقف عنـــد البـــاب والاحتقار يملأ ناظريه!

*****

جحظت عينا الشيخ جحوظا مبينا, وقد تصلب بـــصره في محجريه على ملامح وجه (شاهر) الذي قال مستبشعا:

- اتركه حالا!

- أنت! ولكن.. كيف؟!

ألم ترحل؟ كيف ولماذا عدت؟ ألست في حل من انتقام الظلمات؟

- ربما, ولكن ماذا عنك أنت يا شيخ مسجدنا المبجل؟ ماذا كنت تنوي أن تفعل مع هذا الصبي؟

كان الشيخ قريبا من سلاح رئيس المخفر الملقى بجوار الحفرة, أقرب للسلاح من (شاهر) الذي حاول بسرعة و لم يفلح..

وفي الثانية التالية كان السلاح يرقد في قبضة الشيخ التي صوبتها اتجاه صدر الفتى..

ضحك الشيخ ضحكة سال لعابه لها, وبعقيرة غاضبة صرخ كمن فقد رشده أخيرا:

- أنا الأجدر بينكم بالمغفرة! أنا الأجدر!

ثم ألصق فوهة السلاح بصدغه وأطلق النار..

*****

بدا المشهد كعرض على شاشة التلفاز تم تجميده بكبسة زر عن طريق جهاز للتحكم عن بعد..

ثم وببطء السلحفاة تصاعدت حول جثة الشيخ مادة لزجة بدت كالقطران الأسود المغلي, فأحاطت بالجثة قبيل ابتلاعها, ومن ثم تلاشى كل شيء كأن لم يكن!

حتى الحفرة ارتجت بشدة وبقوة مزلزلة أركان المسجد, وببطء عادت للالتحام من جديد!

بقي (شاهر) واقفا مع الصبي, وعندما نظر (شاهر) للخارج عبر الباب المفتوح على مصراعيه همس:

- الفجر ينبلج أخيرا..

نظر الصبي له.. أخيرا نطق.. فقال بنبرة بدت وكأنها آتية من قعر بئر سحيق:

- أعتقد بأنه يتوجب عليك الاعتراف أيضا!

صمت (شاهر) كأن على رأسه الطير, لم يشعر بالخوف, كان شعوره الطاغي والمثقل لكاهله هو الحزن العميق, فجلس القرفصاء متمتما بذل وانكسار:

- كيف أبدأ إذن؟ أنا مجرد مدمن شقي لا يميزه شيء, و لم يعرف أبا في حياته أو أما..

أنا ابن حي فقير, صنعت من جسدي آلة عمل مجنونة كي أخرج من الحضيض, عملت نادلا في مطعم واحتملت إهانات الزبائن وصاحب العمل, وحلمت بالمال الوفير والفتاة المثيرة كأي شاب حالم, ثم توقفت عن الحلم متبينا الفاجعة, لن تكون لي فتاة أبدا, ولن أمتلك مالا وفيرا مهما حاولت!

ثم تعرفتها.. كانت فتاتي, زوجتي الحبيبة.. تناسيت ما فكرت به سابقا لدى زواجنا, الرحمة كانت موجودة لكني تظاهرت بالعكس..

كنت أعمل لتحصيل ثمن المخدر المطور, تعاطيته متجاهلا آلام زوجتي, ثم حملت بطفلي الذي جاء للحياة مظلوما بسبب والد فاشل لا هم له سوى التعاطي..

وابتسم منتحبا وأنامله تتلمس شفته السفلى المرتعشة:

- لم تعلم زوجتي شيئا عن إدماني, كنت مدمنا محنكا أعرف كيف أخفي الآثار جيدا, لكنني أخيرا دفعت الثمن وبأقسى صورة ممكنة!

في ذلك اليوم طلبت مني زوجتي تحميم طفلنا, تركته لي لانشغالها في المطبخ, اختارت أسوأ توقيت حيث كنت أهم بحقن نفسي, كانت..

كانت حادثة! حادثة لعينة! ظل الماء يتسرب والطفل في الحوض, وأنا كنت في غيبوبة جميلة, أحلق مع طيور وهمية في سماء ملونة!

وعندما أفقت وجدته.. وجدت..

اختلط الدمع بالمخاط, صار جاثيا على ركبتيه آملا بحكم الموت..

- "وجدت ابني غارقا! رأسه وأطرافه الصغيرة! كانت كلها غارقة في ماء داكن مخيف! وزوجتي..

زوجتي جنت! لعنتني قبل موتها في المستشفى! كانت الكوابيس تطاردني دائما بشأن طفلي الذي قتلته بحماقتي! و لم

أتعظ بل واصلت إدماني اللعين هربا من الدنيا وكوابيسها المخيفة!"

صار الآن يلطم نفسه بقسوة, وقال ووجهه مدفون بالأرض:

- رأيتها! (لؤلؤة)! زوجتي! كانت في المصح! ذات النظرات المعاتبة! لسان حالها يقول لي: طفلنا يا (شاهر)! أنت قتلت طفلنا!!

أخيرا رفع وجها كالحا غارقا بسوائل الضعف البشرية, فغمغم بهدوء:

- لا أعلم ما إذا كان اليأس خطيئة, لكنني أدرك تماما خطيئتي, وأعلم تماما ماهيتها ومدى خطورتها.. لقد شككت برحمة خالقي, و لم أستعطفه في شيء قط, ولربما كان هذا السبب أكثر من كاف لنيل نصيب هائل من التعاسة, بقيت أشعر بها دائما وأبدا..

ودمعت عيناه متأملا الصبي الجميل, حدق في عينيه الشفافتين مليا وهو يتساءل بحسرة:

- هل سأتحرر أخيرا من الكوابيس؟ هل تغفر الظلمات لي يا ترى؟

أشار الصبي للباب المفتوح بسبابته, كانت عيناه مظلمـــتين الآن, وبصوت بدا آتيا من قلب الظلام بحد ذاته نطق قائلا:

- الله يغفر والظلمات تنفذ مشيئته..

هزّ (شاهر) رأسه موافقا, ونهض ببطء وبصره معلق بالباب الذي أتى عبره نور الفجر الخارجي المبهج..

هكذا خرج وشعور الطمأنينة يسكن روحه أخيرا..

آخر جزء

حلق بعلو منخفض فوق الموج الأزرق المتلاطم بهدوء نسبي سرب من النوارس البيض, ملتقطة رزقها بين الفينة والفينة بمناقير منقضة نادرا ما تخطيء إصابة الهدف..

وبين الصخور الغامقة ذات القاع الطحلبي الخشن, جلس عدد من الصيادين بقصبات صناراتهم الطويلة, يجربون حظوظهم مع البحر وأسماكه الماكرة, علهم ينالون شيئا من حظوظ النوارس البارعة.. بعضهم أتى لمجرد التسلية وقضاء الوقت في رحاب البحر وسكينته المطهرة لنفسية ابن المدينة الملوثة, والبعض الآخر قدم آملا برزق شحيح كونه لا يملك مركبا ولا عدة صيد من شباك وغيرها..

وعلى الشاطئ ذهبي الرمال حيث الأطفال يمرحون ببناء القلاع المهددة بالاندثار لقربها من المد, والشبان يمارسون رياضة كرة اليد, والكبار يجالسون بعضهم البعض على مقاعد الشواطئ المريحة ذات الألوان الزاهية.. خطى رجل يناهز الستين من عمره بقدمين حافيتين فوق الرمل الدافئ, أشيب الفودين ناصع البشرة, ذقنه المزدوجة حليقة بعناية وإن شابها جرح قديم لم ولن يندمل أصيب به في سن الكهولة..

تعلق بصره بالأشكال التي خطها بقدميه فوق الرمل الناعم المريح, كانت أشكالا مبهمة رسمها بخطواته العشوائية المتعثرة, ثم توقف وبدأ يخط أحرفا أبجدية بعبث صبي صغير, حتى كشفت بسمته الواسعة عن أسنان نضيدة مرصوصة بعناية, لطالما أثارت عجب وغيرة أقرانه من الزملاء والأصحاب الذين تقاعدوا بأفواه خالية من الأسنان أو ببقايا أسنان سود!

ألقى وراء ظهره ببدلة أقحوانية كانت نظيفة ومكوية بعناية هذا الصباح, وتابع مسيرته بغير هدى مستكشفا ببصره الضعيف تفاصيل الحياة باهتمام غير مسبوق, لبث طويلا أمام الأمواج الهادئة, وتفكر في مرح الصغار وحيوية الشبان الفائقة قبل معاودته التدوين على الرمال البيضاء الناعمة..توقف بغتة عما يصنعه وقد استرعى انتباهه شيء ما, كان مدفونا بين الرمال بعناية, كما لو أن أحدهم تعمد تركه هناك..

ولأن بصر المسن كان ضعيفا, مال بجذعه متجاهلا الألم الذي سرى في ظهره كتيار كهربائي, مائلا باتجاه ذلك الشيء المدفون والبراق بشدة تحت أشعة الشمس الذهبية..

*****

عكف (شاهر) على المجيء للشاطئ كلما أعلنت نشرة الأخبار أن الموج سيكون في حالة مد, وذلك لأجل لوحة كان يرسمها بعناية فائقة تتعلق برؤيته الخاصة بالبحر..

في ذلك اليوم اختار بقعته المعتادة شبه المنعزلة عــن بقيــة الرواد الهاتكين جمال الشاطئ ورونقــه بلــهوهم وســخفهم والنفايات التي يكومونها هنا وهناك, وتنهد أول ما وصل عندما لاحظ نفايات باقية منذ الأسبوع الفائت..

انشغل بخلط الألوان على القرص الخشبي ذي الفتحات التي يمسكها بأصابعه, متأملا ببصر شبه ناعس لوحته المثبتة علــى قائم خشبي ثلاثي الأرجل.. كان هذا عندما سمع صوتا منبعثــا من وراء القائم يقول بنبرة تحد يسهل تبينها:

– أنت ترسم البحر!

توقف عما يصنعه, ونظر وراء القائم ليطالعه رجل مــسن حافي القدمين يحمل على كتفه بدلة أقحوانية نــصف مبلولــة وملطخة بذرات الرمل, قال له مصطنعا ابتسامة:

– أستميحك عذرا؟

نفخ المسن بنفاد صبر مكررا ما قاله, فتنهد (شاهر) شاعرا بحرقة سوداء انبعثت من ثناياه لاقتحام أحدهم جدران حــصن عزلته الذي ابتناه بجهد جهيد..

– "لابد وأنك ترسم البحر! وماذا سيرسم واحــد مثلــك يقف قريبا منه غيره؟"

واحد مثله؟ بدت كإهانة اضــطر لابتلاعهــا.. لم يكــن (شاهر) شبيها بالرسامين الذين يرسلون شعورهم وشــواربهم

طويلة بوهيمية كفرسان (ألكسندر دوماس), في الواقع كـــان حليق الرأس تماما وقد ارتدى ثيابا صيفية لا عيب فيها ســـوى ألوانها الباهتة من أثر الغسيل المتكرر..

أراد قول شيء, دعابة بشأن "أمثاله", لكن المـــسن ســـبقه قائلا بلهجة ماكرة:

– أراهنك على أنه البحر!

– تراهنني؟!

– أجل, فإن لم يكن أعطيتك ما وجدته! ·

هل قال ما وجده؟ ماذا سيعطيه إذن؟ صدفة أم سمكة؟

واقترب الرجل كأنما نال الموافقة على ذلك الرهان, مختلسا النظر إلى اللوحة بوقاحة كما اعتبرها (شاهر), والمـــضحك أن الرجل بدا خائب الأمل وهو يتأوه قائلا:

– هذا ليس البحر!

نظر (شاهر) للتأكد مما يرسمه, لقد كان البحر فعلا لكنـــه رسمه على غير حاله, رسمه على حقيقته, بعواصـــفه الهوجـــاء العاتية وشراسته التي أودت بملايين الأرواح عبر السنون..

ثم قال باسما:

– البحر غدار!

لكن الرجل كرر بإصرار مخرجا ما يجيبه بإحباط:

- هذا ليس البحر! ليس البحر!

ومدّ يده مسقطا شيئا ما سارع (شاهر) بتلقفه قبل إيقاعه أرضا.. كان ساعة جيب فضية بلا سلسلة, شده لما وقع بصره على نقوشها البديعة والمبهمة, فبهت قائلا:

- أنا لا أستطيع قبول هذه!

- أنت ربحت وأنا خسرت! هذا ليس البحر!

وفي تلك اللحظة اقتربت شابة جذابة بثياب خفيفة, أمسكت بذراع المسن قائلة بلهجة لائمة:

- أين ذهبت يا جدي؟ هأنتذا قد بللت ثيابك ولطختها.. أين حذاؤك؟

وبلهجة معتذرة قالت متأملة (شاهر) بنظرة سريعة:

- لماذا تزعج هذا السيد؟ هلم بنا..

ثم غمغمت معتذرة:

- سامحنا, إن جدي مزعج بعض الشيء..

- لا عليك..

- آمل ألا يكون قد ضايقك..

- الواقع أنه شخص مسل!

ضحكت لدعابته, وعاودت جذب الرجل المخرف قائلة بحزم أم تحاول تنشئة طفلها على الأخلاق القويمة:

– هيا بنا, كفاك عبثا اليوم يا جدي.. عن إذنك!

أومأ (شاهر) برأسه متأملا بشفقة استسلام الرجل لها وهما يبتعدان, فما إن تأكد من ذهابهما بعيدا عنه حتى حوّل بصره إلى ما أخفاه بقبضته وغنمه من ذلك العجوز المسكين!

*****

في "الشاليه" الذي استأجره بعيدا عن صخب رواد الشاطئ, جلس على طرف فراشه متأملا الساعة الفضية العتيقة, تفحصها بأصابع حذرة وقد شعر بغبطة تعتريه لحظه السعيد في تملك قطعة أثرية كالتي بين يديه..

وجدها معطوبة, فرقد على الفراش باسما بشيء من خيبة الأمل, وتمتم قائلا وبصره لا يفارق عقارب الساعة الساكنة:

– لو أن (صفير) هنا لتمكن من إصلاحها حتما!

ألقاها إلى جواره, وسكن فترة وكأنه استسلم للنوم, ثم لم يلبث أن اعتدل واقفا يتأمل اللوحات المرسومة التي احتلت أكثر بقع المكان.. لوحات استنسخها من ذكريات عجيبة يغلفها المجهول..

أكثر اللوحات لفتيان وفتيات, كل واحد منهم رسم بوضعية تناسب شخصيته.. فتاة بدينة ذات شفاه ملطخة بالشيكولاتة, أخرى حافية القدمين رغم ثيابها الارستقراطية, فتى يحجب بصره بيديه وقد حملقت به مخلوقات عجيبة الشكل كأنها آتية من المريخ, وآخر جالس على مقعد مدولب, ثالث يحمل دمية تماثله حجما وشكلا, فتى أشقر جميل وآخر بثآليل قبيحة..

ثم لوحتان احتلتا الجزء الأكبر من الغرفة, الأولى تمثل فتاة جميلة جالسة تبتسم كالجيوكندا وهي تضم إلى صدرها برفق وحنو طفلا رضيعا..

لوحات متعددة وذكريات تفوق الوصف لا يمكن حصرها في لوحات, وأسماء كثيرة مبهمة ومضحكة تحمل شخوصها قصصا تسترعي الانتباه والتعجب.. (أزوريت), (ذهب), (صفير), (زغدة), (حلزون) وغيرهم!

تنبه للوحة الأخرى.. لها مكانة عميقة في نفسه لدرجة حجبها بغطاء ستارة قديم, كأنما يحافظ عليها من يدي مجهول آثم.. تملكه شجن دفعه إلى إزالة الغطاء, فتبدت فتاة عذبة ترفل في ثوب أبيض وأجنحة بيضاء ملائكية, فبدت كحور الجنة..

تلمس بحذر الوجه المرسوم في اللوحة, كان يذكر ملامحها جيدا..

جهز لنفسه قدح قهوة, وضعه على الطاولة حيث أوراق بحثه المتعلق بالمادة (R.D.٧), التي تحولت الآن إلى مذكرات, صفحة بيضاء جديدة وقلم, لا وقت يضيعه فهم آتون عما قريب!

أسند خده بيد بينما يدون بالأخرى حروف كلمات هامة:

– كانت الإفاقة من حالة الموت السريري كالخروج من قبو مظلم تحت الأرض, و لم أصدق لغاية اليوم أن كل أولئك الذين قابلتهم شخصيات من نسج الخيال..

لكن المخدر المطور لم يكن مجرد هلوسات جنونية, كان صديقي القديم (فيصل) الذي قابلته في الحي القذر وتجاهلته محبا للمطالعة, كنا نناديه بأرسطو الفصل من أيام الثانوية, لم يتوقف يوما عن المطالعة, المخدر صنع له "سيناريو" بمنتهى الغرابة لما جعله مشلولا يؤمن بالخرافات العجيبة, وهو دليل على أن (R.D.٧) مخدر غير عادي!

أما (داهوت) فقد كان مجرد نسخة أكثر وهنا من الفتى الذي حاجته قبلا, ذاك المدعو (حيدر)! (حيدر) لم يكن أشقر, و(داهوت) لم يكن مفتول العضلات, ثمة حالة مزج عجيبة حدثت, فصنعت منهما شخصا واحدا في النهاية لا قدرة له على مواجهتي أو أذيتي!

أتراها نشوة المخدر؟ إذلال أعدائي وجعل الفتيات أسيرات هواي؟

حتى (هدهد) بدا قريب الشبه من صاحب المطعم بالحي القذر!

أما (ناردين) فسبب تذكري لها طيلة الوقت هو (شهد)! تلك الطالبة المقهورة من الحي القذر! الملامح واحدة وإن تبدت (ناردين) أجمل وأرق! المخدر أثبت خطورة حقيقية, أثبت أنه أول مخدر يعرف كيفية التسلل للدماغ والتلاعب به عن طريق هلاوس متقنة! أذكر حادثة وقعت عندما كنت طالبا في الجامعة, فقريبا من السكن قبضت الشرطة على شيخ مسجد يتحرش بالأطفال! رأيته ورأيت الذي اقتاده, رجل الأمن المتغطرس والمعتز بسلاحه!

أتلك ترجمة المخدر لما وقع للرجلين في المسجد بتلك البلدة؟

وعندما مرضت قمت بزيارة ذلك الطبيب الذي كان نسخة طبق الأصل من طبيب البلدة الذي نجا! كان رجلا طيبا سامحني بالأجرة وتمنى لي حظا طيبا بالدراسة.. ألهذا كان الناجي الوحيد من مذبحة مسجد البلدة المروعة؟!

أشهد بأن (R.D.٧) نقلني إلى عوالم غير طبيعية, لولاه أيضا لما وجدت الخلاص الذي أنشده, فشكرا لك أيها المعلم على تلك التجربة المخيفة!

شكرا لك!

لم يدر كم لبث على حاله تلك, عندما سمع طرقات علـــى بابه..

جفل ناهضا من مكانه, وعلت مسحة تساؤل وجهه متجها صوب الباب, وعندما فتحه تغيرت تقاسيمه لدهشة عميقة وقد تبدى عدم تصديق في عينيه المتسعتين.. وفي ذهنه تبدى وميض خاطف للوحة مرسومة, تمثل ملاكا بجناحين بلـــون الـــشتاء الناصع!

– (ناردين)؟!

كانت هي, الفتاة ذات الأجنحة في الصورة! هي بـــذاتها! ذكريات كثيرة! ذكريات ذات غموض متأرجح ما بين الوهم والحقيقة.. لا تمحى بسهولة!

خطت الفتاة ببطء هامسة بشفتين مرتعشتين وقد دمعـــت عيناها:

– اشتقت إليك!

وأنهت الحديث بأن ارتمت في أحـــضانه باكيـــة, فـــشعر بالدموع تغمر مقلتيه وسعادة لا متناهية تتملكه.. أنا لم أتماثـــل للشفاء بعد, لكنني مع ذلك سعيد للغاية!

لم تتبدل (ناردين) أبدا في نظـــره, لا تـــزال ذات المليحـــة صاحبة أرق ملامح, لطالما ذكرته بزوجته الراحلة, ذاكرتـــه لا

تخيب, يستطيع تذكر شخوص حكايته الغريبة واحدا واحـــدا وسط أفواج البشر, يستطيع تمييز أصـــواتهم مـــن بـــين آلاف الأصوات..

لقد عاش مع أوهام ووقع في حب أوهام..

طرقات على بابه..

جفل ناهضا من مكانه, وعلت مسحة تساؤل وجهه متجها صوب الباب, وعندما فتحه..

– "السيد.. (كاسبار.. هاوزر)؟!"

ابتسم بجفنين مغمضين, وهمس وادع أجاب:

– أجل!

فتحهما, فأبصر عددا من رجال الشرطة على رأسهم ضابط تساءل بحيرة مطالعا وريقة بين أصابعه:

– هل أنت أجنبي يا سيدي؟

– لا..

– مسيحي؟

– لا..

– اعذرني على تطفلي لكن اسمك..

– لا عليك..

دسّ الضابط الوريقة داخل جيبه قائلا بروتينية رجال الأمن:

– أنت اتصلت بنا مبلغا عن جريمة وقعت أليس كذلك؟

– بلى.. جريمة قتل!

– قتل؟ قتل؟! أين؟!

– لحظة واحدة.. تفضلوا بالدخول رجاء..

دخلوا وراءه وقد ساورهم شك عميق بشأنه.. اتجه (شاهر) للثلاجة الصغيرة متسائلا:

– تشربون شيئا؟

– معذرة يا سيدي لكن وقتنا من ذهب..

– إذن لن أضيع مزيدا منه..

وعندما فتح باب الثلاجة, انقلبت الوجوه ذعرا صريحا, وفي الثانية التالية وجد (شاهر) فوهات معتمة لأسلحة مـــصوبة في وجهه..

– "إياك أن تتحرك!"

فرفع بيديه عاليا وابتسامة تضيء ملامح وجهه..

– "أهذا رأس الذي بداخل ثلاجتك؟! انطق!!"

– "أجل!"

- "رباه!!"

دنا عدد منهم والرعب على وجوههم يفوق التصور, كان الرأس لرجل ممتلئ, لحيته كثة ذات لون رمادي تخللته بعض حمرة الحناء, شبه أصلع وقد استعان بتطويل ما تبقى من شعر حتى بلغ الكتف!

أشار (شاهر) بإبهام يده اليمنى المرفوعة لفوق كمن يؤكد جودة سلعة ما, وبمرح قال:

- حفظته لكم كي لا يتحلل.. أوليس جميلا؟!

النهاية

